المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

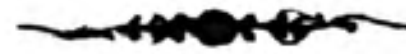
من دفتر الذكريات الجنوبية

السيّد حسن الأمين
الشيخ علي الزين
السيّد علي ابراهيم
الشاعر موسى الزين شراره
الصحفي ألفرد أبو سمرا
الصحفي سليمان أبو زيد

دار الكتاب اللبناني

مِن ذِكرَيات

السيّد حسن الأمين



شقرا ــ قضاء بنت جبيل

الذكريات العاملية هي احب الذكريات إلى نفسي واعلقها في خاطري . وهي التي تثير بي اسمى المشاعر وارهفها .

ولقد احسنتم حين سميتم موضوعكم الذكريات العاملية ، بعد ان كاد ينمحي اسم جبل عامل من الاذهان والافواه والاقلام . بل هو قد انمحى فعلاً من كل ذلك ، وبعد أن طغى على اسم جبل عامل اسم الجنوب .

والحديث عن هذا هو من صميم الذكريات العاملية ، فإن اسم جبل عامل يشعر بماض عربي عريق تسلسل في هذا الجبل منذ سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، والله اعلم كم تسلسل فيه قبل هذه السنة ، اذ ان اقدم نص عثرنا عليه عن وجود العرب العامليين في جبلنا يعود تاريخه إلى هذه السنة ، ومن الطبيعي ان العامليين لم يوجدوا فجأة من هذه السنة بل ان وجودهم يعود إلى ما قبلها بما لا يعلمه إلا الله .

ولن اخوض في البحث في هذا الموضوع الطويل ، ولكنني اقتصر على ذلك بالقول ، انه منذ ذلك العهد حتى اليوم كان جبل عامل يشع بذكريات المجد العلمي والفكري والشعري والادبي ، وكان مجرد ذكر هذه الكلمة (جبل عامل) يوحي بذلك .

ثم حدث ان احتل الفرنسيون هذه البلاد سنة ١٩١٨ وقطعوا اوصالها وانشأوا فيها كيانات متعددة واوجدوا ما اسموه لبنان الكبير وضموا فيما ضموا إليه جبل عامل وطرابلس ، ثم انشأوا المحافظات اللبنانية ، فابقوا اسماءها كما عرفت في السابق ما عدا محافظتين هما محافظة طرابلس ومحافظة جبل عامل فاسموا الاولى محافظة الشمال والثانية محافظة الجنوب . فقد كان في تسمية الاولى

باسم محافظة طرابلس ما يوحي باسمها العربي القديم الذي عرفت به وهو طرابلس الشام تميزاً لها عن طرابلس الاخرى في شمال افريقيا التي عرفت باسم طرابلس الغرب .

وقد كان في تغيير اسم جبل عامل قطعاً له عن ماضيه العربي القديم الذي يعود إلى بني عاملة الذين هاجروا فيمن هاجر في موجات الهجرة العربية من اليمن ، ثم استقروا في هذه الجبال فعرفت باسمهم اولا واطلق عليها اسم جبال بني عاملة ، ثم اختصر إلى جبل عاملة ، ثم إلى جبل عامل . ونجح المستعمرون في تبديل الاسم وضاع اسم جبل عامل على لسان ابنائه فاصبحوا يعرفون عن أنفسهم بالجنوبيين .

لا : لسنا جنوبيين ، نحن عامليون ، ونحن جنوبيون بمعنى آخر ، بمعنى أننا نزحنا في الاصل من جنوب الجزيرة العربية من اليمن ...

وما دمت قد ذكرت مبدأ الاحتلال الفرنسي لهذه البلاد فان اول ذكرياتي عن جبل عامل تبدأ مع هذا الاحتلال الذي لم اع اوائله ، ولكن وعيت بعد ذلك من ادركوها وشاركوا فيها فظلوا يتحدثون عنها وظلت تنطبع في اذهاننا . وقد ترددت في سرد بعض ما اسرده ولكن رأيت انه ملك للتاريخ وان على الاجيال العاملية أن تعرفه وتطلع عليه .

ففي مطلع الاحتلال الفرنسي للبنان ولما ألحق به من بلاد ، واحتلال الانكليز لفلسطين ، وقيام الحكم الاستقلالي العربي في الداخل نشط الفرنسيون في بث دعاتهم ليكون ابناء جبل عامل أو بالاحرى ليكون الشيعة في صفهم ، مستغلين في ذلك بعض احداث الماضي . ؛ وكان السيد محسن الامين يومذاك في جبل عامل . اذ قضى أيام الحرب فيه وجاء الاحتلال وهو فيه . فتنبه للأمر وادرك خطورته ، فاستغل ماله من اثر في البلاد وعمل على قيام مظاهرة وطنية عاملية كبرى تحسم الامر فانطلق يدعو إلى تشكيل وفد عاملي كبير ليذهب إلى دمشق لتهنئة اولي الامر فيها وعلى رأسهم الامير فيصل بانتصار الجيش العربي وقيام الحكم الاستقلالي .

وبذل السيد محسن الامين كل ماله من تأثير وكل ما يتمتع به من ثقة عند الناس لإنجاح هذا الوفد أو بالاحرى هذه المظاهرة فكان له ما أراد . ولم تكن المواصلات يومذاك على ما هي عليه اليوم ، بل كان لا بد في الذهاب إلى دمشق من امتطاء الخيل . فتشكل موكب وطني يضم مئات الفرسان العامليين في طليعتهم علماؤهم وزعماؤهم . وسارت هذه المظاهرة الفريدة ، مظاهرة الفرسان تخترق البلاد يتقدمها علم عربي بالوانه الاربعة ، ويهزج رجالها اهازيج الفروسية العربية الاستقلالية منتخين على ظهور الجياد ، جادين في الفلوات ملفتين انظار الدنيا كلها اليهم حتى وصلوا دمشق . وكان السيد محسن الامين قد استغل ماله من اثر في دمشق فاوحى بان تكون الحفاوة بالركب العاملي حفاوة تليق بالمناسبة التي جاءها من اجلها ، فهبت دمشق تستقبل العامليين استقبالاً لا نظير له وتكرمهم اجمل التكريم . وعرف العامليون انهم يحلون بين اخوانهم واحبابهم فازدادوا حماسة .

وادركت انا بعض من شاركوا في تلك المظاهرة وحدثوني بالكثير مـــن تفاصيلها المثيرة .

وكانت مظاهرة الفرسان الحد الفاصل بين التردد والثبات وحسمت الامر للصالح الوطني الاستقلالي . وكانت ذكرى من اسمى الذكريات العاملية جديرة بالاحياء والتدوين .

وما دمت في ذكر السيد محسن الامين فاسمحوا لي ان انصفه في ذكرى وطنية اخرى . ذلك ان نوايا الانكليز والفرنسيين قد تجلت على حقيقتها ، قبل نهايه الحرب بفضح معاهدة سايكس – بيكو التي قضت على كل أمل للعرب في التوحيد والاستقلال ، بعد أن كانوا قد اعلنوا ثورتهم وخاضوا الحرب مع الحلفاء املاً بالتوحيد والاستقلال . ثم احتلوا البلاد ممزقين لها . في تلك الفترة بالذات ، وبعد أن احتل الفرنسيون الساحل والانكليز فلسطين والعراق وأبرز

الفريقان نواياهم الحقيقية . كان أول صوت شعري عربي يعبر عن مشاعر العرب هو صوت السيد محسن الامين فنظم قطعة شعرية سنة ١٩١٩ ، سنة بروز هذه الحقائق تصور واقع الحال فقال :

ان الحياة تنـــازع وخصـــام
هيهات ما بسوى السيوف ســلام
والعدل كالعنقـــاء فينـــا فالـــذي
لم ينف عنـــه الضيم فهو يضـــام
قالوا السلام نريـــده بفعالنـــــا
والامن تدركه بنـــا الاقـــوام
ان كان هـذا منكـــم وسلامكـــم
فعلى السلام تحيـــة وســـلام
قالوا الشعوب نفكهـــا من رقهـــا
كلا بل استعبادهـــا قـــد رامـــوا
هبوا بني قحطـــان طال رقادكـــم
فإلى م انتم غافلـــــون نيـــام
باسم الحماية والوصايـــة يجتوى
حق لكـــم وتدوسكـــم اقـــدام

اؤكد لكم ان هذه القطعة الشعرية العاملية كانت أول صوت شعري عربي بعد الحرب العالمية الاولى يندد بالمستعمرين ويستصرخ العرب . وانها أول قصيدة في هذا الموضوع نظمت في البلاد التي نكبت باحتلال الانكليز والفرنسيين : أي في العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين . ويوم يسجل تاريخ الادب العربي تسجيلاً سليماً ستأخذ محلها في صدره . ولكن هل نأمل بان يسجل لا تاريخ الادب وحده ، بل التاريخ كله تسجيلاً سليماً ؟ . لا اننا لا نأمل ذلك

أبداً . واذا لم نسجل نحن تاريخنا بأيدينا فلن يسجله أحد .

ومن ذكرياتي العاملية إفتتاني بالطبيعة العاملية وحرصي الشديد على ان تأخذ تلك الطبيعة حيزها في الشعر العاملي وعندما كنت اقرأ تغني الاقدمين باماكن معينة في بلادهم يذكرونها باسمائها . وكذلك تغني المحدثين بمثل ذلك كنت اتألم ان لا تذكر الاماكن العاملية الجميلة في الشعر مما حملني على نظم الشعر لأتغنى بجبل عامل وطبيعته فكان مما قلته مرة :

هيا وادي الملّول حييــــت واديــا
بشقراء فواح الازاهــير حاليــا
ويا وادي الملول هــل انت ذاكر
عشيات انسي في السفوح خواليــا
فهل خيم في تين (وردة) اقفــرت
وعري كرم حولهــا كان كاسيــا
فهل ذبل اللوز النضير وهــل ذوت
غصون من الزيتــون كانت زواهيا
لئن لذ للوراد عــــذب مزاتهـم
فان فؤادي فيه ما زال ظاميــــا
يحن لماء البركتـــين ويشتهـــي
مشارع في تلك الذرى ومساقيــا
له الله خفاقــاً على غارب النـــوى
يصارع اياماً ويشكـــو لياليــا
لقد شفه بعــد المزار وهاجــــه
إلى شجرات التين ان ليس دانيــا
فيا شجرات التين في سامق الـــذرى
سقيت على البعــد الغمـام الغواديا

فما راقني بعد « الدواوير » مربـــع
ولا اعتضت عن وادي « السلوقي » وادياً

ولا شاقني من بعـــد عزة مبسم
يشوق ولا هـــاج الغرام فؤاديا

سقى « الحومة » الخضراء صوب سخائب
وروّى هطـول المزن ثم « الدغاليا »

مرابع يطلعن « السكوكـــع » ابيضا
وينبتن « الدحنـــون » احمر قانيـــا

نناجي مغانيها النضـــيرة لو وعـــت
على منتأى الدار المشـــوق المناجيـــا

ونسأل عنهـا الركب هـل كان زاهراً
ربيع الحمى فيهـــا وهل كان زاهيـا

ومن الذكريات العاملية التي يمتزج فيها حب الطبيعة العاملية بحب الجمال القروي ، فيلتقي الحبان في القلب فيهيجان ما فيه من صبابات واشواق ، ويبعثان غراماً ساذجاً بريئاً ، ينطلق على اللسان شعراً فيه بساطة القرية وبساطة جمال حسنائها مما ارويه لكم لا لجودته ولا لجودة ما رويته من قبل ، بل لانه ذكرى من ذكريات القرية العاملية ، ويمثلها طبيعة وغراما . وقد كان من عادات القرية انه عندما يلتقي الرجل والمرأة مارين في الطريق فان المرأة هي التي تبدأ بالتحية قائلة صباح الخير أو مساء الخير وفي الرد على احدى تحيات الصباح كانت هذه الابيات :

صباح الخير ما احلى الصباحا
نطالع فيه عينيـــك الملاحا

لمحتك والعراب الجـرد وافت
تجوب بنا السباسب والبطاحـــا

فكنت لناظري في الواد مهـوى
وكنت لمهجتي روحاً وراحـا

نزلنا الواد والقندول ماجت
ازاهره وعرف الرند فاحـــا

وعزة بين اسراب الصبايـــــا تلوح كجؤذر في الرمـل لاحا
تفيض على الوهاد الخضر زهـوا وتملأ جانب الوادي مراحـا
هيا وادي السلوقي المنـــــدى سقى الوسمي اربعك الفساحا
نحب على النوى منك الخزامـي ونشتاق السكوكع والاقاحـا
ونعشق في مرابعك اغتباقـــاً ونهوى في متالعك اصطباحـا
اذا ما عزة طلعت صباحـــاً على الوادي فما احـلى الصباحا

* * *

ومن الذكريات انني نشأت وأنا اعلم ان الجند الفرنسي في احدى طلعاته على جبل عامل قبض في قرية جويا على احد أبنائها السيد يوسف طاهر ، وانهم حكموا عليه بالاعدام وساقوه إلى وادي جيلو حيث نفذوا فيه الحكم رمياً بالرصاص ، وكنا في مطالع الصبا نجتاز بوادي جيلو في طريقنا من شقرا إلى صور في عرض الوادي فنرى قبّه صغيره يقال لنا انها اقيمت فوق قبر الشهيد ، وكان منظر القبة يهيجني فكتبت يوماً مقالا نشرته مجلة العرفان في عددها المزدوج الصادر في نيسان سنة ١٩٣١ بعنوان شهيد الوادي ، دعوت في مقدمته إلى الاحتفال بذكرى هذا الشهيـد وانهيت المقدمة بهـذا القول: اننـا ندعو الشباب العاملي الحر إلى الاحتفال بذكرى هذا الشهيد الابي واخوانه بقية شهداء الاستقلال الذين هووا تحت الرصاص في تبنين وصور وغيرهما من مختلف النواحي العاملية .

وكان جزاء مجلة العرفان على نشرها هذا المقال ان عطلتها السلطات الفرنسية ستة شهور .

ورويـت لي قصـة في عهـود الصبـا عن ادهم خنجر انه كـان يعسكـر بعصابته في قلعة الشقيف ، وان الفرنسيين كانوا يعسكرون في تلال النبطية ، فاخذوا يطلقون على قلعة الشقيف قنابل مدافعهم ، وان ادهم خنجر لم يبال بل دعا رفاقه إلى حلقة الدبكة واخذوا يدبكون على دوي القنابل . فتخيلت ذلك وكتبت قصة بعنوان « شبّابة من نار » ومعلوم ان الدبكة العاملية لا تتم إلا في النفخ في قصبة تسمى «الشبابة» ينفخ فيها احدهم انغام الاغاني العاملية فيدبك الرجال

على تلك الانغام ، فجعلت في القصة دوي المدافع هو الشبابة التي دبك على انغامها ادهم خنجر وعصابته ، وارسلتها هذه المرة أيضاً إلى العرفان . فنشرها الشيخ عارف الزين في عرفانه ، فكان جزاؤه ان عطلت مجلته هذه المرة سنة كاملة .

هكذا كان الشيخ عارف الزين وهكذا كانت مجلته ، ولا اعرف رجلا له من الاثر في انهاض بلاده ما كان للشيخ عارف الزين من الاثر في جبل عامل . واذا كنت استطيع ان امسك القلم الآن فان الفضل الاكبر في ذلك يعود للشيخ عارف الزين ولمجلته العرفان .

واذكر من فضله في عهد الدراسة الابتدائية اني كتبت موضوعاً ارضى المعلم وكان صديقاً للشيخ عارف فطلبت اليه ان يرسله إلى العرفان فارسله وكتب في مقدمته ما لا ازال اذكره « هذه سانحة من سوانح التلاميذ لعل العرفان تنشرها على علاتها »

فنشرها الشيخ عارف الزين فكانت أول ما نشرت ثم تتالى ذلك أكثر من مرة ، وكان كله ينشر على علاته ، وما كان أكثرها من علات كما تبين لي بعد ان وعيت .

ويوم تذكر الذكريات العاملية ، فان الاكبار كل الاكبار يجب ان يوجه إلى الشيخ عارف الزين وإلى مجلته العرفان .

* * *

ومن الذكريات الدمشقية العاملية ، اننا تظاهرنا في المدرسة الثانوية في دمشق مهاجمين الفرنسيين ، وخرجت المظاهرة من المسجد الاموي ، وكنا مجموعة من الشبان في الصف الاول منها وقد تشابكت ايدينا فمضينا من باب المسجد في سوق الحميدية نحرض ونهتف حتى خرجنا من السوق وانطلقنا في الشارع الواسع ولم نكد نبلغ منتصفه حتى هاجمنا الجنود الفرسان بخيولهم وسيوفهم

فاشتبكنا معهم بمعركة بالحجارة ثم استطاعوا تفريقنا ، فبدأ الشرطة السريون الذين رافقوا المظاهرة يقبضون على قادة المظاهرة وفوجئت بالقبض علي ، واذا الذي يقبض علي هو الذي كانت يدي في يده منذ خروجنا من باب المسجد حتى نهاية سوق الحميدية ، واذا به احد رجال الشرطة السريين الذين اندسوا بين المتظاهرين ليعرفوا المحرضين فلم استطع ان أنكر شيئاً مما فعلت لان شاهدي كان إلى جانبي .

ومضوا بنا إلى السجن ، ولما اغلقوا باب الزنزانة علينا وانقطعت كل صلة لنا بالخارج شعرنا برهبة السجن ، انه في الواقع شيء رهيب وبقينا بضعة أيام ثم ساقونا إلى المحكمة ، وكانت المحاكم الوطنية في ذلك الوقت هي التي تنظر في هذه القضايا وكانت تقضي ببراءة المساقين اليها .

وشعر الفرنسيون بذلك فوضعوا قانوناً سموه قانون قمع الجرائم جعلوا بموجبه النظر في هذه القضايا أمام المحاكم الفرنسية . فكان اقل ما تحكم به في مثل هذه الحالات هو سبعة أشهر في السجن .

ولما كان لا بد لنا من اثارة المظاهرات في مناسبات مختلفة كنا ما ان نطمئن إلى حسن سير المظاهرات حتى نسرع إلى التواري قبل الصدام . وفي احدى المرات حركنا مظاهرة ضخمة في دمشق اتجهت إلى القصر الذي كان ينزل فيه المفوض السامي الفرنسي . وما هو ان بلغنا الترامواي انا وبضعة من رفاقي حتى اسرعنا في الصعود إليه ، فرآنا احد المتظاهرين وعرف فينا المحرضين على المظاهرة فصاح بنا بلهجته المحكية الطريفة : وين يا افندية وين حميتوها وهربتو ؟

وفي هؤلاء الرفاق من طلاب الجامعة اقول من قصيـــدة بعنوان وداع الدروس عندما انهينا تحصيلنا الجامعي وقطعنا آخر امتحان جامعي لنا :

ولت ليـالي الامتحـــان واقفـــرت
تلك الملاعـب من جمـوع صحـابي

من للكياسة والبشاشـــة بعدهم ؟
من للهوى والبشـــر والترحـــاب ؟
من للحماســة يستثــير كمينهــــا
من للتظاهـــر ثم والاضـــراب ؟

* * *

ومن الذكريات العاملية ايام توليت القضاء في جبل عامل اننا قبضنا على قافلة كبيرة من اليهود المهرَّبين إلى فلسطين وذلك في العام ١٩٤٤ قبل قيام ما يسمى باسرائيل وذلك ان الانكليز قد وضعوا قانوناً يجيز الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعداد معينة تتجاوز عشرات الالوف ، ولا يجوز للهجرة القانونية ان تتجاوز هذا العدد . وكان الصهاينة يدخلون اضعاف العدد المقرر وذلك بتهريبهم عبر الحدود البرية . وكان هذا التهريب يجري في معظمه عن طريق صيدا النبطية حتى الحدود الجبلية التي يدخلون منها بكل سهولة .

فصممت على مقاومة هذا التهريب بما املك من وسائل محدودة ، ولذلك قصة طويلة سيطول امر سردها ويكفي ان اقول انها كانت هي سبب استقالتي من القضاء . وقد قبضنـــا على قافلة كانت تجتاز النبطية وسقتهـــم إلى المحكمة وحكمتهم باقصى العقوبة . وقد كتبت في مذكراتي القضائية عن هذا الحادث ما انقل لكم بعضه :

« وفي صباح يوم من الايام كانت باحة المحكمة واروقتها غاصة بالجمهور المتطلع بقلوبه قبل عيونه ، اعلنت حكمي القاضي باقصى العقوبة على رجال القافلة الصهيونية ومهربيهم . ولاحظت بعد النطق بالحكم الدموع تنهمل غزيرة من عيون فتى وفتاة من اليهود ! والله وحده يعلم كم تفعل الدموع في نفسي وكيف اضعف امامها فاحنو على اصحابها مواسياً مشاركاً ، والله وحده يعلم أي قلب بين جنبي ، قلب ينفعل للمهمومين وينفطر للموجعين .

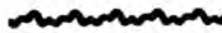
ولكن الدمع المترقرق هذه المرة من العيون الصهيونية كان له في نفسي أثر غير الأثر الذي عرفته نفسي من قبل ، ولاول مرة في حياتي اجد للدمع مثل هذا الشعور اللطيف ! . ماذا ؟ . اتبدلت انسانيتي اتحجرت عاطفتي ؟ ! ! . اعدت رجلا غير الرجل الاول الحساس المرهف الحس ؟ ! .

ابعد ان كنت ابكي للدموع ، عدت انا نفسي أثير الدموع .

وتطلعت في حناياي ، وجلت في اعماقي ، وتلفت في خاطري ، وحدقت في وجداني ، فرأيت اني لا أزال ذاك الرجل العريق في انسانيته ، الرجل الذي يبكي للباكين !

الرجل الذي لا يطيق احتمال الدمع في عيني انسان ، بل يحس وكأنه شهب من نار تنصب على جوانحه ! .

وادركت للتو ان انسانيتي وحدها هي التي جعلتني استطيب الدمع هذا النهار ! واني وأنا افجر الدموع في عيني هذا الصهيوني انما أحاول أن احبسها في عيون الالوف من العرب الذين سيبكيهم هذا الوغد على ارضهم واهلهم .



من ذكريات

الشيخ علي الزين



جبشيت ـــ قضـــاء النبطيـــة

صياغة وتقديم : **الاستاذ جهاد الزين** (١)

توضيح : (عذراً ، أنا المتطفل رغماً عني على هذه المناسبة ان اعرض ملاحظتين سريعتين :

الاولى هي ان الذكريات التي ستستمعون اليها بلسان الشيخ علي الزين ، هي حصيلة حديث سجله الشيخ علي على كاسيت في الاسبوع الماضي وقمت أنا بتدوينه مع بعض التدخل الذي يقتضيه الفارق بين المشافهة والكتابة مع محاولة الحفاظ على شخصية الذكريات قدر الامكان وهي ذكريات بعض مراحل تجربته .

الثانية هي ان الشيخ علي حرص أكثر من مرة قبل وخلال وبعد تسجيل الحديث على الاستدراك التالي : اذ يعتقد الشيخ علي ان هناك خطراً يهدد موضوعية اية ذكريات شخصية حتى رغماً عن ارادة صاحب الذكريات . هذا الخطر يتلخص في احتمال تصور دور أكبر للشخص في بعض الاحداث من حجمه الحقيقي ويعتقد الشيخ علي بما معناه ان سوء الفهم هذا يظل ماثلاً طالما ان الاطلالة على الحدث تم من خلال الشخص فربما بدا وكأنه يعتبر نفسه محور الحدث . بينما الذي يملي ذلك هو نوع الحديث أي كونه ذكريات شخصية والتاريخ العلمي برأي الشيخ علي هو ان يطل المؤرخ على الاشخاص من خلال الحدث وليس على الحدث من خلال الاشخاص) .

يقول الشيخ علي :

ولدت في النجف وجئت صغيراً إلى جبشيت (٢) مع والدي العائد بعد غياب عشرين عاماً في الدراسة هناك .

(١) لقد تليت هذه الصفحات بحضور الشيخ علي الزين ، رغم سوء حالته الصحية ، وكثيراً ما كان يعلق ويضيف .

(٢) قرية جنوبية تقع غربي النبطية .

لم يتسنَّ لي في طفولتي الجو الذي يجعلها ملفتة للنظر . نشأة في قرية زراعية منعزلة لا يوجد فيها أي عامل ثقافي ينمي مواهبي سوى ما تيسر لي ان اتلقفه في جو بيتنا في جبشيت . لم يكن الكتاب موجوداً في جبشيت وفي حال وجد كان يتولاه من لا يحسن التعليم . فنصف الدرس ضرب والنصف الآخر ضغط أما التوجيه فقد كان معدوماً . وقد تيسر لي أن أتعلم في أحد « الكتاب » كنت اقضي السنة كأنني في سجن فقد كان المعلم رحمه الله رجلا طيباً لكنه لا يتقن طرق التعليم . حفظت جزء عمَّ من القرآن الكريم ولم يكن عندي فرق في ذلك أكنت احفظ لغة تركية أو عربية . لانني لم أكن افقه شيئاً . ولذلك بقيت مدة لا أحسن القراءة مستصعباً كل شيء إلى أن أتانا معلم فاضل ويحسن التدريس فتعلمت لديه القراءة والكتابة خلال شهر . وعلى الرغم من ان والدي كان عالماً دينياً ويتردد عليه علماء آخرون ومثقفون من ذلك الزمن إلا ان الطفل بطبعه يميل إلى اللعب فلم أكن لاستفيد كثيراً من هذه الأجواء . كما ان مشاغل والدي رحمه الله لم تسمح له بتخصيص وقت لتدريسنا انا وشقيقي خلال تلك الفترة . وبقيت على هذه الحال ، أقرأ قصص عنتره وبني هلال وغيرها حتى فتح العلامة الشيخ عبد الحسين صادق (والد الاستاذ حبيب) مدرسة دينية في النبطيه فارسلنا والدي ، شقيقي وأنا ، للتعلم عنده فحفظت كتاب الصرف والنحو المسمى « الاجروميه » ودرست قسماً من قطر الندى لابن هشام ولكن باسلوب فاتر جداً . انما النقلة إلى النبطية وسعت افقي من الناحية الاجتماعية ووفرت لي الاتصال بشباب النبطية ابناء المشايخ وجملة شباب متعلمين . كنت استغرب في البداية كيف يفهمون ابياتاً من الشعر لا استطيع ان أفهمها معتبراً ان فيها الفاظاً غريبة إلى أن اعطاني المرحوم والدي بعض القصائد مع شرحها وعلمني مراجعة القاموس . والمجالس الادبية التي كنت احضرها في النبطية صقلت ذوقي سواء من حيث الوزن أو الميل الفني . فكنا نجتمع في المجلس وكان الشاعر الحوماني والشيخ أحمد رضا رحمهما الله من جملة المشايخ ينظمان القصائد .

ومن ذكرياتي في النبطية انني كنت اذهب إلى محلات الحلاقين لاتأمل صور

عنتر وعبله وغيرها فأضع ورقة امامي وآخذ في تقليد هذه الصور . ونما ميلي إلى التصوير فأخذت أرسم الوجوه وأقلد آرمات المحلات . ثم صرت آتي ببعض الاخشاب فاصنع منها رفوفاً وخناجر وأشكالاً اخرى . كل هذه الفترة في النبطية لم أكن قد بلغت فيها بعد سن الرشد . وصادف ان الحرب الكبرى وقعت فاقفلت مدرسة المرحوم الشيخ عبد الحسين صادق فعدت إلى جبشيت .

اثناء الحرب فتحت دكاناً صغيراً في جبشيت وشاركت فيه احد الأقارب. كان شريكي ثرياً ويملك اراضي واملاكاً كثيرة . وأخذ الاتراك يجندون الشباب فكان شريكي أحدهم . فذهب إلى العسكرية واوكلني بكل املاكه وبالاهتمام بعائلته . كانوا يأخذون الجميع إلى الجندية باستثناء النساء والعجزة . وتعلمون حال كل البلاد في تلك الفترة العصيبة . وأذكر ان هناك أشخاصاً ماتوا فعلاً من الجوع في جبشيت . وعلى الرغم من قساوة تلك الظروف إلا انها نزلت بي إلى معترك الحياة فازدادت صلتي بالناس وبالحياة الزراعية . اذ ان اضطراري إلى ادارة املاك شريكي هو الذي اوجب علي الاهتمام بالزراعة بكل اشكالها ومفاوضة الفلاحين وتشغيلهم رغم ان التجنيد جعل الصالحين للعمل قلة في ذلك الزمن . وفضلاً عن هذه المهمة اخذ والدي ، الذي كانت لديه أيضاً املاك زراعية من أراض وحيوانات يكلفني بملاحقة بعض شؤونه خارج جبشيت . خصوصاً ان شقيقي اضطر إلى ملازمة القرية خوفاً من أخذه إلى الجندية .

بعد الحرب توفيت شقيقتي فجاء الشاعر الحوماني والقى في رثائها قصيدة . خلال ذلك اقترح عليه والدي ان يبقى في جبشيت وان يمارس فيها مهنة التدريس وقد افادني معشره جداً فكانت احاديثه الادبية جميلة وجذابة . وفي تلك الفترة اخذت احضر المجالس الادبية مع الشاعر الحوماني في بيتنا وصرت أنظم القصائد وأدرس النحو والصرف وازداد ميلي الدراسي .

* * *

بعد ذلك قررت الذهاب إلى النجف فرفض والدي في بادىء الأمر لان الطريق إلى العراق لم تكن على ما يرام . لكنني صممت فقبل في نهاية الأمر وذهبت مع الرفقاء الذاهبين إلى هناك . كان ذلك عام ١٩١٩ . عندما وصلت إلى النجف كنت أعتقد نفسي الأكثر جهلاً بين الزملاء فكان زملائي في الدراسة يقرأون شعرهم فأجد انه ارفع مستوى من شعري . فأخذت اتجاهل القصائد التي كنت قد نظمتها في جبل عامل .

بعد مدة من المجالسات الادبية والدراسة الجدية . أخذت استعيد ثقتي بنفسي تدريجياً وصرت أدخل في حوارات علمية وأدبية . ثم أخذت تصلنا العرفان بعد فترة من التوقف . كانت مجلة العرفان مثلا اعلى بالنسبة لنا نحن العامليين في العراق . كان العامليون يعتبرونها رسالة الوطن . كذلك كانت يومئذ موضع اهتمام وتقدير الاوساط الأدبية في العراق .

ويهمني أن أقول انني قبل مجيئي إلى النجف كنت أعتقد انها مجتمع من الملائكة وخلال اقامتي فيها رأيت انها لا تختلف عن غيرها من المجتمعات من حيث الممارسات والأساليب الملتوية . فكان فيها التنافر والخصومات والنزاعات الشخصية على أشدها . وصدف أيضاً ان العامليين أنفسهم في النجف كانوا منقسمين على أنفسهم . والخصومة أحياناً تنبه الانسان إلى الكثير من الامور التي تفيده فيما بعد .

ثم جاءت بعدنا افواج جديدة . وبين الوافدين الشيخ حسين مروه والشيخ محمد شراره والسيد هاشم الأمين . وآخرون . ومع الشيخ حسين مروه والمرحوم محمد شراره والسيد هاشم بالاضافة لي أخذت تبرز نزعة أدبية مقرونة برفض للاوضاع القائمة في النجف اجتماعياً وثقافياً . كنا أشبه ما نكون بكتلة مميزة . ننشر في العرفان ونهتم برفض الأدب البالي القديم . وكان الاخوان يقدرون ملاحظاتي ويعرضون علي قصائدهم في بعض الأوقات .

في ذلك الوقت كانت الثورة العراقية قد انتهت وكانت مراكزها الاساسية في النجف وكربلاء وبغداد. وقد دفع هذا الجو الوطني العارم باهتمامنا الثوري ونمّاه. وتضاعف هذا الاهتمام عندما جاءت أخبار الثورة السورية التي تبنينا أفكارها وطموحاتها. (وقد نظمت قصيدة أرسلتها خلال الثورة السورية لسلطان باشا الأطرش).

ولقد ساعد وجودنا بعيدين عن الوطن ووسط الاجواء الثقافية والفكرية الجديدة التي توفرت لنا والأحداث الجسام التي حصلت في تلك الفترة في سوريا والعراق على جعل رفضنا للاوضاع القائمة متعدد الأبعاد. فكرياً واجتماعياً ووطنياً. وفي النجف بدأنا متابعة الصحف المصرية وخصوصاً الهلال التي كان طه حسين من أبرز كتابها كذلك كان محمد حسين هيكل يصدر جريدة السياسة. وأذكر انه عندما مات سعد زغلول وصلنا عدد خاص عن الزعيم المصري تضمن القصائد والكلمات التي القيت في رثائه. وكنا نرى فيها أدباً رفيعاً. كذلك كنت استفيد من مكتبة الشيخ محسن شرارة الذي كان يواظب على شراء الكتب الجديدة. ومن خلالها اطلعت على شعر شوقي وحافظ وكنت متأثراً جداً بشوقي.

كنا ناقمين على أساليب التدريس في النجف التي لم تكن تماشي التطور. كانت مدينة محافظة تسيطر عليها الروح الفردية وخصوصاً لدى قادتها. وعلمتنا التجربة في النجف ان أية ثورة لكي تكون جدية يجب أن تبدأ بنقد الزعماء ورجال الدين لان دورهم هو الأهم في المجتمع.

وحصل إن انحرفت صحتي. فجئت إلى بغداد وعرضت نفسي على الدكتور شريف عسيران وكان رئيساً لاحدى المستشفيات ورجلا ذا اخلاق حميدة ويهتم بالاداب والفنون. كان شخصية مرموقة. بعدما فحصني رأيته يجامل. قلت له أنا يهمني أن اعرف اصابتي بصراحه. أنا لا أخاف من المرض. ولكن أنت تعرف ان لي علاقات وصداقات كثيرة. فيجب أن احتاط للأمر خوفاً من أن

أنقل العدوى إلى أي شخص آخر . فقال لي عندها : رئتك مضروبة ويجب أن تعود إلى لبنان .

* * *

وهكذا حصل . عدت إلى لبنان عام ١٩٢٨ وكانت قد سبقتني إليه زوجتي وابني حسن الذي ولد في النجف . والذي كان لا يزال طفلاً . في جبشيت بقيت شهرين ثم ذهبت إلى المصح في حمانا . ذهابي إلى حمانا أفادني جداً . تحسنت صحتي فعدت إلى جبشيت . في هذه الفترة التي كنت شبه منعزل فيها كان يأتيني بعض الزوار . ومنهم بعض شباب بنت جبيل . كانت المرة الاولى التي أتعرف فيها عليهم والحقيقة ان لقائي بهم أنعشني كثيراً نظراً للروح الادبية الفياضة التي كانوا يتحلون بها .

منذ ذلك الحين بدأت تتوطد صداقتي بهم . كان بعضهم يقيم في النبطية فسعينا أنا والشاعر المغفور له عبد الرؤوف الامين معهم لاقامة حفلة للشيخ حسين مروة بعد ان كنا قد أقمنا قبل ذلك حفلة للحوماني عندما ذهب إلى المهجر . وأخذت العلاقات تنمو . والمراسلات تزداد بيننا . كنت إذا ذهبت إلى بنت جبيل أشعر اني لست فقط في النجف بل مع خاصة ادباء النجف . أينما وجدوا قصيدة أو كلمة أدبية جيدة كانوا يقرأونها في مجالسهم . كانت الحوارات الادبية والسياسية تدور على أنواعها في هذه المجالس . في البداية كنت شخصياً أطبع كل اهتماماتي بطابع هزلي . حتى اني كنت أستخدم الزجل في مراسلاتي معهم وهم بدورهم يجارونني فيها . إنما كانت هذه الزجليات زاخرة بالنقد الاجتماعي والسياسي .

ولقد اغنتني الاجتماعات في بنت جبيل وشقرا والصوانة والنبطيه عن الاجتماعات في النجف التي اضطررت إلى قطع دراستي فيها . وبفضل هذه الأجواء نشأ عندي تطلع جديد بعدما كنت شبه يائس بعد عودتي .

أخذت اطالع وأكتب وأنظم القصائد في جو حركة أدبية وسياسية واجتماعية . كان ادب الاصدقاء زاخراً بالثورة . ولعل شعر الصديق موسى

الزين شرارة خير من تتجمع فيه هذه الصفة لانه تعرض في شعره لكل الاوضاع سواء تجاه الزعماء أو العلماء أو الادباء .

في هذه الفترة حصلت حوادث سياسية واجتماعية كثيرة في بيئة جبل عامل وخارجها . ولكن الأمر الذي شغل تفكيرنا السياسي تمحور حول الوحدة السورية . وهذا منذ ما قبل مجيئي من النجف . لقد تجزأت سوريا فاصبحت فكرتنا الاساسية هي توحيد سوريا على اعتبار ان الوحدة السورية مقدمة للوحدة العربية . يومها لم يكن بمقدورنا أن نطلب من فرنسا توحيد البلاد العربية لانها كانت الحاكمة على سوريا فقط . كان توحيد سوريا منطلقنا للوحدة العربية . وفي كل مناسبة كانت المؤتمرات والنشاطات ترتكز على هذه الفكرة . وفي النبطية كان هذا الاتجاه ظاهراً بقيادة الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ضاهر أكثر منه في بنت جبيل . وان كانت بنت جبيل من الناحية الادبية أقوى . فظروف بنت جبيل كانت غير ظروف النبطية . بنت جبيل كانت تحت قبضة الاقطاع . زعماؤها الاقطاعيون كانوا يسيطرون عليها . وبقيت هذه الحالة إلى عام ١٩٣٥ في ذلك الوقت كان الضغط الفرنسي قوياً . ويصدف أن يموت فضل الفضل . فيتجه المستشار الفرنسي بشكوف إلى ترشيح نجله . هنا يتحرك زعماء من جبل عامل كانوا على خلاف مع بشكوف إلى ترشيح المرحوم عبد اللطيف الأسعد شقيق كامل الأسعد الكبير ووالد أحمد الأسعد . ويدعم رياض الصلح هذا الترشيح . كان عبد اللطيف الأسعد ، في ذلك الوقت ، مضعضعاً على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . لكن اخصام الفرنسيين حضنوه ضد الدولة المنتدبة وضد اصدقائها . هنا تحرك شباب بنت جبيل وعرفوا ان يستغلوا الفرصة . فاتفقوا مع الحاج محمد سعيد بزي وهو زعيم المنطقة تقريباً على أن يؤيدوا عبد اللطيف الاسعد . وذلك قبل ان يعلن المستشار بشكوف بوضوح دعمه لترشيح ابن الفضل وإذا لم يكن الفرنسيون قد أوضحوا من هو مرشحهم لنيابة الجنوب فقد كان من الصعب على وجهاء بنت جبيل التقليديين رفض ترشيح ابن الأسعد .

وهكذا تحرك شباب بنت جبيل بكل قواهم . فأخذوا ينظمون المهرجانات والاجتماعات حتّى أصبح الرأي العــام كله مع عبد اللطيف الأسعد . وقبـل الانتخابات بيومين تأتي أوامر مشددة من بشكوف بانتخاب فلان الفلاني . هنا يتراجع بعض الزعماء التقليديين لكن الشباب احتاطوا سلفاً وهيأوا الرأي العام . وفي يوم الانتخاب اتت كل القرى بعراضات وكانت بنت جبيل المركز الرئيسي لكل المنطقة . (لقد ظهر واضحاً ان شباب بنت جبيل ربحوا المعركة شعبياً وإن كان الضغط والتزوير الفرنسيان قد أديا إلى نجاح خصم عبد اللطيف الاسعد) .

لمع شباب بنت جبيل جداً في هذه الفترة لأنهم كانوا الوحيدين الذين استطاعوا أن يوقفوا الجماهير ضد بشكوف بينما لم يستطع غيرهم ذلك في بقية المناطق . وكثرت الحركات في تلك الفترة إلى أن حصل الاضراب الشهير في سوريا عام ١٩٣٦ وابتدأ في مثل هذه الأيام . كل مدن سوريا اضربت . إلى ان استجابت المفوضية الفرنسية فتشكل وفد من هاشم الاتاسي وجميل مردم وسعد الله الجابري وذهب إلى باريس للمفاوضة . في تلك الفترة التقينا مع عدد من الشباب في مجلة العروبة في بيروت . وهي مجلة كان يصدرها الشاعر الحوماني ثم اجتمعنا في مقهى فاروق وتناقشنا في ما ينبغي عمله بمناسبة سفر الوفد . فاتفقنا على ضرورة صدور برقيات عن جبل عامل بتأييد الوفد وتفويضه بالمطالبة بضم جبل عامل إلى سوريا . ويصدف ان يتوفى عبد اللطيف الاسعد في تلك الفترة . فالتقي في اسبوعه بشباب بنت جبيل وأعرض عليهم فكرة ارسال البرقية إلى المفوض السامي وكنا قد هيأنا برقيات لكل من صور والنبطية وبنت جبيل . وكما قلت كان لشباب بنت جبيل وزنهم بعد الانتخابات . وكان لهم دورهم مع المزارعين ضد الريجي التي أخذت تضيق عليهم أي على الفلاحين وكان الجو حامياً . والمزارعون مستاؤون حتّى رميش وعين ابل كانتا مستاءتين أيضاً . المهم أخذ الشباب البرقية وطيروها إلى المفوض السامي وأذكر ان الصديق علي بزي الذي كان من المع شباب بنت جبيل قال لي : هذه فرصة ثمينة فقديماً ما كانـــوا

ليتجرؤا على المطالبة بالوحدة السورية لان المنطقة تعتبر هذه المطالبة وكأنها دعوة اموية نظراً للجمود الذي كانت ترزح تحته بنت جبيل بفعل سيطرة الرجعيين والزعماء . وأضاف علي بزي : الان اصبح بامكاننا ان نطالب بالوحدة السورية دون حرج .

وبعد فترة شهدت فيها بنت جبيل حوادث دامية من جراء اصطدام الفلاحين بقوى الامن . واترك لابناء بنت جبيل أن يؤرخوا تلك الحوادث .

ذهبنا علي بزي وأنا سوية إلى دار المرحوم أحمد الاسعد في الطيبة لكي نستطلع من الاسعد عن مدى استعداده لتأييد خطنا وخصوصاً فكرة الوحدة السورية . واذكر انه خلال الجلسة دار نقاش طويل بيني وبين علي بزي . حول هل تكون الوحدة السورية مركزية وهذا رأيه أولا مركزية وكان هذا رأيي . وبنتيجة النقاش بدا علي بزي مقتنعاً بوجهة نظري . وهكذا اتفقنا على ان نقسم اليمين على العمل لتحقيق الوحدة السورية . فدخل المرحوم الاسعد وأتى بالقرآن الكريم وكنت قد كتبت صيغة القسم وأقسمنا جميعاً اليمين على المبدأ نفسه . وعدت مع علي بزي إلى بنت جبيل حيث أخذ الشباب يقسمون اليمين في منزل الشيخ محسن شراره ومنازل أخرى .

* * *

أذكر في تلك الفترة أي خلال حوادث بنت جبيل عندما اعتقل شبابها ان قرر شباب النبطية الاضراب وفي يوم الاضراب كنت أتجول في السوق فشاهدت أحد المحلات ويخص تاجراً كبيراً في السن مفتوح الباب ولكن قليلا . فذهبت إليه ووجدته يجلس داخله فقلت له من الأفضل أن تقفل المحل خوفاً من أن تسمع كلمة غير لائقة من أحد الشباب . فأجابني لماذا لا تضربون يوم الاثنين إذا كنتم جادين (وهو يوم السوق في النبطية كما تعلمون) الاضراب الحقيقي يكون يوم الاثنين .

فذهبت وعرضت الفكرة على الشباب فوافقوا . وليلة الاثنين كنت في النبطية واذ ببعض الوجهاء يمرون قربي ولا يسلمون علي ، على غير عادتهم . فسألت أحد أصدقائي لماذا هم كذلك . قال لي انهم ذاهبون الان للاجتماع في دار بهيج الفضل حيث سيجتمع وجهاء النبطية للبحث في حل الاضراب . وقر رأي الشباب أن أذهب أنا لحضور الاجتماع للتأثير على أي قرار يحاولون إتخاذه ضد الاضراب .

وهكذا حصل ذهبت إلى الاجتماع وبقيت مستمعاً معظم الجلسة إلى أن قال أحد الوجهاء – أنا لست عربياً ولا اريد الاضراب . أنا أرمني .

عند ذلك قلت له لانك أرمني سيزداد اعتمادنا عليك . فالارمن معروفون بروحهم الوطنية العالية . فسكت . ثم قيل لي ان هناك جماعة من التجار لا يمكن أن يضربوا فأعطيت مثلا التاجر المسن الذي قال لي قبل يوم إذا كنتم جادين في الأضراب فالاضراب يوم الاثنين أفضل . هنا قلت لهم إن هذا التاجر بالذات هو صاحب اقتراح الاضراب يوم الاثنين . وما إن لفظت اسمه على اعتباره صاحب الاقتراح حتى ساد جو من الصمت . ثم تلاشت معارضة الاضراب فصاحب الفكرة منهم وفيهم .

هذا بعض من ذكريات لم أشأ أن تأخذ من وقتكم أكثر مما أخذت .

والسلام عليكم .

بنت جبيل

للشيخ علي الزين

نظمت سنة ١٩٣١ على أثر مشادة عنيفة بين الشيوخ والشباب أو بين الحديث والقديم فهي ترمز لأصدق صورة اجتماعية في ذلك العهد لهذا البلد الناهض .

عفواً تمرّد واستبد هواكِ … بفؤاد مكلوم الحشاشة ذاكي
وهفت بجامحه هوى وصبابة … شيم الوفا والعطف من ابناك
الضائعين ازاهراً ولطائما … والساطعين اهلةً بذراك
والساحرين براعةً وفصاحةً … والثابتين مبادئاً بولاك
من كل برٍ شاخصٍ بجهودهِ … وحياتهِ زلفى إلى علياك
خفّت به للمجد نفسٌ افرغت … من قلب والهة وروح ملاك
(موسى) نباتك في المكارم والعلى … وعصاه في سحر البيان عصاك
(وعلي) منك على حداثة سنّهِ … بمحل قلبك أو محل نهاك
حذق السياسة في مجاجة قوله … وعلى الفعال سذاجة النساك
وإذا تسنّم صهوةً أو منبراً … وقد ادلهم الامر فابن جلاك
أو فاجأتك من الزمان ملمة … كان الابر سجية بفداك

* * * *

لا تنكري للحب زفرة واله … منهم ودمعة شاعر بأساك
بعث القوافي الشاردات معازفاً … محمومة الاوتار والاسلاك
لما رآك تنقلين مهيضة … من عسف دجّال إلى فتّاك
مصفودة الاقدام خائرة القوى … كالطير بين مخالب وشراك

وعلى الفؤاد من المهابة رعشة   عفت مروءته وكمّت فاك
وعلى العيون من الخمول ملاءة   غالت وضاءث كل زاه زاكي
حال يعز على الاديب وطبعه   ان لا يكون باصغريه وقاك
تجري بها الايام واجمة كما   يجري اليراع بما جنت سفهاك
المسرفين تطفلا وتخيلا   والمدعين تشببا بسناك
ولرب مفتون تيقن إنما   اصبحت فيه سدة الاملاك
وإذا دعا داعي الثقافة أضرمت   يمناه ثورة ناقم سفّاك
أو صارخ للحق في نزعاته   قد ضاع حقك واستبيح حماك
أو غاضب للدين بين بيوته   للخمر حانة ماجن افّاك

* * * *

تلك المهازل أي جد بعدها   للدهر ينقع غلة بحشاك
ان لم تصوني في جوارك عصبة   هتفت بمجدك واصطلت بهواك
وصبت لكل فضيلة وتكاتفت   فيما يصونك أو يعز لواك
وأبت على مرح الغبي وبطشه   ان تعبث الاهواء في مغناك
قد آن منك الاحتفاء ببرها   والحب والاكبار في يمناك
لم يسلفوك على المودة جفوة   ليخيب ظنهم بعدل وفاك
الغرس غرسك ان حففت بظله   وشذاه بين المنتشين شذاك
ماذا عليك اذا خفرت ذمامها   والحق والتاريخ من حلفاك
وروائع الأدب الطريف وكل ما   في الشعر من ورد ومن اشواك
وإذا تناهى للبيان بك القضا   طالت يداه وللخلود نماك
وتقهقرت أوهام كل مجازف   بولاك أو مستأجر لعداك

* * * *

أتقرُّ منك على الهوان حفيظــةٌ … أم تخفت الأيام صوت إباكِ ؟
وعلى مبادٍ للشبــاب نبيلـــــة … رسخت عقيدتك وشب هواكِ
وتوحدت نزعات نشئك بعد ما … درسوا منا حي النفس من ادباك
وتطلعوا نحو الحيــاة طليقـــة … شتى الفنــون بعيـدة الادراك
الحق غاية شكهـا ويقينهـــا … والحب رمز الدين من صلحاك
والعدل قاعدة الحكومة لايــد … للاقوياء بهـا على ضعفــاك
والشعر مرآة العواطـف ينطوي … هزج المروج به وبث الشاكي
فلكل خال منــه ثغر باســـم … ولكل عان منــه طرف بـاك
ولكل لفظ من براعـــة فنــه … لطف النسيم وقــوة الاسـلاك
وإذا تحامى الباحثون وابهمــوا … ما جل أو مادق من معنــاك
يضفي على متنيك بـرداً خالـداً … من وشيه هذا البيـــان الحاكي
تتصاغر الاحلام دون جلالــه … وتخور عاطفة الكمـي الشاكي
وتقول كل مدلّة بحليهــــا … ما أحقر الالماس عنــد حلاك

Scanned with CamScanner

من ذكريات

السيّد علي ابراهيم



انصار ـ قضاء النبطية

جبـل العروبة

يا شموخ الإباء لم يبق فينـا بعد وقع الخطوب نفحة شعرِ
زحف الليل ثم ألقى سدولاً لم نجد خلفها طلائع فجـر
لم يفد صبرنا وأي حكيم يدفع الضيم في مواكب صبر ؟!
كيف دالت أيامنا كيف هنّا لا تسلني فأنت مثلي تـدري
جبلٌ كان للعروبةِ غيـلاً أصبح اليوم ، بين قبرٍ وقفـر

ومع ذلك يأبى الدأب والجلد ، والإيمان بالحياة والقيم ، على المشرفين على هذا المجلس الكريم ، غير الصمود والنضال ، وبذل الجهد لربط الماضي بالحاضر وإعطاء بعض الصور المشرقة عن ديارٍ كانت مسرحاً للأحداث ، وموطناً للعلم والمعرفة والأدب والفنّ .

وها أنا أقف بينكم أيها السادة الكرام لأقلّب بعض الصفحات من دفتر الذكريات فأحار من أين أبدأ ، وإنما هي صور وأخيلة لا أملك سواها ، يحنّ اليها القلب ويستعرضها الفكر ، كم أودّ أن يعود بي الزمن فأحياها من جديد ، ولكن بنفسٍ حريصة واعية ، تتملّى من المشاهد والصور وتكاد تمسك الأيام فتعيقها عن سيرها .

ترجمة حياة

ولدت في قرية أنصار قضاء النبطية سنة ١٩١١ ، ولا تختلف نشأتي الأولى عن سائر المواطنين في الجنوب ، فقد جرت العادة يومذاك أن يبدأ تعليم الطفل في السنة السابعة عملا بحديث مرْويّ (اتركه سبعاً وأدبه سبعا) فعانيت من جهل معلمي سامحه الله وتأثير أسلوبه البدائي على نفسي وتفكيري ، وبعد ذلك انتقلت لمدرسة القرية الرسمية ، كان المعلم فيها شيخاً قريباً في تفكيره ومنهجه من الأول ، يعلم الطلاب الكبار منهم والصغار ، سائر الدروس ، وحده لا

شريك له ، ويرتفع مستواه بنظر المواطنين عن غيره ممّن يتعاطى هذه المهنة ، فهو موظف رسمي يقبض راتبه من الدولة .

وقد صمّم الوالد رحمه الله على إرسالي للعراق لطلب العلم الديني في النجف الأشرف انسجاماً مع نهجه وسلوك من سبقه من أسرته ، فإن والده المرحوم السيد حسن إبراهيم أسس مدرسة دينية في قرية أنصار حفلت بالطلاب وبعد وفاة والده تعهد هو بشؤونها ، وتملك الأسرة بيتاً في النجف يسكنه طالب العلم من أبنائها .

ذهبت وأنا لا أتجاوز السنة الرابعة عشرة مع والدتي قاصداً النجف التي هي مهوى الأفئدة وكعبة الآمال لطلاب العلم الديني ، وكانت السيارة تجتاز بنا ، مع خليط من الرفقاء ، الصحراء ، فلم تلطف هذه الصحبة من وحشة البيداء المقفرة ، ولم تحمل لنفسي المتألمة لفراق الأهل والأحبة عزاء وتسلية .

ثم أذكر أنني وصلت البلد المقصود فارتديت بزتي الجديدة ودخلت في غمار الطلاب ، ولم أنتسب لمدرسة ذات منهاج محدد وبرنامج خاص . ابتدأ استاذي يشرح لي كتاب (ابن هشام) في النحو وأنا أتلقف كلماته بشغف ونهم وانتباه ، وانتهى به المطاف وهو يفسّر (الكلمة قول مفرد) ويفرق بين الجنس والفصل لهذه الجملة (واستعمال الأجناس البعيدة في الحدود معيب عند أهل النظر)

فعسر على ذهني فهمها وصعب عليّ حلها ، وعز على استاذي ذلك فطاف بموضوعات وعلوم متنوعة ليستعين بها على توضيح المعنى فلم يفتح الله عليه ، ثم رضت نفسي فألفت هذه التعابير وأقبلت عليها استسهل صعابها وأحل رموزها ، فقد علمت أنني نقطة صغيرة في الخضم الواسع ليس لي أن أشكو غموض الأداء وقصور التعبير ، وإقحام علم في علم والاستطراد من موضوع لموضوع فأساليب التدريس لا يغيرها اقتراحي ولا تعدّلها شكواي .

ولم تزل تحتل في فكري وقلبي – وإن بعد المدى – المكان الأول صورة ليالي شهر رمضان وأسحارها وروعتها ، رغم ما أحمله من الذكر الغوالي ، ورغم حنيني لأمسيات الكوفة وظمأي الشديد لشربة من ماء الفرات .

كنا ننتظر شهر رمضان ونستشرق طلعته البهية لنجلس بلياليه القصار في الصحن الشريف مع أخوان أصفياء يطيب لهم السهر وتلذ المنادمة ، وتتجلى لهم الحياة بوجهها الباسم الطروب . يجولون بنواح شتى من العلم والأدب وأخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم ، ونروض القرائح على النظم والإنشاد ونحن بين كل ذلك لاهون عابثون لا نملُّ من المفاكهة والتنادر ، نسمع دعاء السحر مخلصين خاشعين تتبع آياته عواطفنا وتسير في أثرها أحاسيسنا ويحدونا للتأمل والتفكير والتبصر والاعتبار ، تساعد على ذلك خصائص المكان والبيئة ، تمرُّ أمام ذهني هذه الصور الفاتنة من الماضي فأود لو تعود ، ويتملكني الحنين للنجف ومن فيه فأهتف بها وبساكنيها قائلاً :

أرض الغريّ وكل ما منح الحجى — للناس من فضلٍ فمنك المبتدى
ولكل فكرٍ أنت كعبة مأمــلٍ — الركب سار وفيه حاديهِ حدا
وبكل نفحٍ من عواطف شاعرٍ — طيب من النجف امترى وتزودا
همنا بذكرك فالسواجع لم تـثر — لولاك لحنا والمغرد ما شــدا
بقي الحنين العاملي على المـدى — شعراً ونثراً للوصيّ مخلــدا
ولسادة حلوا بجيرة حيــدر — باتوا لآمال البرية مقصــدا
لي أوبـة لحمى عـلي أنتشـي — من قدسه وأرى بتربته الهـدى
وأجدد العهد القـديم وانثـني — ومعي البراءة فهو أصلٌ للندى

وأذكر أن ميلي للشعر والأدب ، ظهر في المرحلة الأولى من عمري فقد كنت أتصيد الكلم الطيب من أفواه النابهين وأسير وراء النفحة الملهمة منقباً في كتاب ، أو باحثاً مستقصياً في مظان البحث وسائر مجالات العطاء والإنتاج ، وكثيراً ما

كنت أقف أمام الصور الشعرية ، فأغيب عن الوجود ومن فيه ، وتتلاشى أمام ناظري مظاهر الألم والشقاء ، وأنسى هموم الحياة وتصاريفها ، وأشعر بأني دخلت عالماً مسحوراً فيه روائع الفن تلوح للعين فيتملى منها الفكر والقلب وينغمس الإنسان في جو من البهجة وخضم واسع من المعاني النبيلة الكبيرة .

ويذكي ذلك في نفسي المناخ الأدبي الجديد الذي أوجده الرواد الأوائل في العراق مثل ، الشيخ علي الشرقي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، ، والشيخ محمد مهدي الجواهري ، والسيد أحمد الصافي النجفي وسواهم ، يضاف إلى ذلك ما يصل لأيدينا من الصحف والمجلات والكتب الأدبية المصرية وغيرها .

ثم عدت لأسباب صحية إلى وطني لبنان فسِرْتُ مع الحياة متنقلاً من نكد إلى نكد ، لم تستقر لديَّ الصور ولا بعثت التجارب للنفس راحة وطمأنينة ، وللفكر رضاً وقناعة ، وإنما هي أماسٍ متعاقبة لا يبزغ فجرها الوليد ، ولا يلوح نورها للناظر ، مع أشتات من الكادحين الذين سيطر عليهم القلق ، ولم يشعروا بالسعـادة ، فرض عليهـم ما ليس لهم من أعمال ، ووضعوا بغير إطارهم ، فأدركوا أن الدنيا حولهم ليست وفقاً لرغباتهم وأحلامهم ، لم تخلقها آمالهم ولا ما يستهدفون من نتائج السعي والعمل ، فكنت أرى بالشعر عزاء وسلوى ، وإشراقاً يضيء أمامي الدرب المبهم ، وبهجة تنسيني الأرزاء والنوائب وتأخذ بيدي فأجتاز العقبات الكأداء ، أقرأ منه ما يصف الحالات التي تشبه حالتي ، فأقول في نفسي كم في هذه الدنيا مشابه وصور ، تتعاقب على مسرح الحياة ، ثم يبتلعها اللجُّ وتفنى في الخضم الواسع العميق .

* * *

قرأت بعد رجوعي من النجف على المرحوم الوالد بقية الكتب المعروفة في المنطق والبيان ، والأصول والفقه ، ثم عينت معلماً للدروس الدينية في مدرسة النبطية الرسمية فابتدأت مع الشعر والأدب مرحلة جديدة في حياتي ، ذلك أن النبطية كانت مسرحاً فكرياً وأدبياً واسعاً ، ويكفي للدلالة على ذلك وجود سيادة

الشيخ عبد الحسين صادق والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وغيرهم فيها . ولا بد لمن قدر له الاتصال الوثيق بهؤلاء الأعلام ، من ملاحظة اختلافهم بالنهج الذي سلكوه واتفاقهم على جوهر المعرفة وخدمة العلم والدين ، وتعزيز الشعر والأدب .

فالشعر عندهم الحبيب المجتبى صلوا له بعد الإلـه وصامـوا

بهذا المجتمع الذي كنت أتنقل فيه بين نادي سيادة الشيخ عبد الحسين صادق وبيت الشيخ أحمد رضا وأرد منهلهما العذب ، رأيت أن أسير مع قافلة الشعراء والأدباء وتأكد لي أن طريقي مسدود لارتداء الزي الديني ولبس العمة الكبرى ، والإنصراف للوعظ والإرشاد كما أراد المرحوم الوالد .

وكانت مجلة العرفان لصاحبها الشيخ أحمد عارف الزين ، أحد الأقطاب الذين كان لهم الفضل بما وصلنا إليه ومجلة العروبة لصاحبها الأستاد محمد علي الحوماني ، رجل المنابر والنقد الاجتماعي والأدبي ، في أوجهما فوجدت في نفسي ميلا اسراً لنشر ما عندي ، وكانت البداية في مجلة العرفان (أدباء جبل عامل بقلم رسام) وفي العروبه حول ملاحظات في الأدب العاملي رداً على الشيخ علي الزين ، ومشيت مع الركب ولا أدري متى تنتهي الطريق .

* * *

ولم يَخْلُ عدد من أعداد العرفان من مقال أو قصيدة لي منذ بَدَأتُ ، ومن المواضيع التي عالجتها فيها ، شعراء من جبل عامل ، ومن صور الحياة ، ورسوم .

ولولا ذلك العلـم الفرد الذي ظـل ثمانين عاماً أمام دواته وقلمه ، يفكر ويستهدف ، يعبد ربه ويجلس اليه في الأسحار والناس نيام فيرتل ويحن ويتشوق ثم ينصرف من ساعة النجوى مع خالقه لأرفع ما خلق وأسماه ، فيقف أمام باب المعرفة خاشعاً ينفض الأتربة المتراكمة على الهيكل ، أجل لولا صاحب أعيان

الشيعة ، سيادة السيد محسن الأمين ، ومجلة العرفان ، ما عرفنا شيئاً عن شعراء وأدباء جبل عامل .

تحدثت عنهم طويلاً بالإذاعة اللبنانية ولم أزل ، فموضوع أدباء من وطني يذاع كل أسبوع ، وكانت لنا في أيامنا الزاهرة طرائف جميلة منشورة في العرفان .

(نضّر الله عهودا بالحمى — سالفاتٍ ورعاها ما رعى)

منها أن أصدقاء الحوماني احتفلوا سنة ٩٦١ بوجوده في ربوع الوطن وداعبوا لحيته الجديدة التي أطلقها بعدة قصائد ومما قلته في قصيدتي مخاطباً الحوماني ، عاتباً عليه لتركه الساحة الأدبية ، وانصرافه بالمدة الأخيرة لصحبة الأعيان وإظهار الزهد والتقوى .

مَنْ للجمال إذا انصرفت عن الهوى
وأرقت راحك يا هوى الندمان

وجعلت همك يا طويل العمر في — دفن الجنائز من بني شيبان
وجلست بين عجائز لا ترتجى — الا حلول النصف من شعبان
وحملت سبحة زاهد متبتل — ما انفك يهدي الجهل للإنسان
مَنْ للحياة يكف من بأسائها — ويثيرها حرباً على الحرمان
ويقول للزعماء آن حسابكم — فالذئب جار على قطيع الضان
مَنْ للشتيت من الرجال تنافسوا — بالجهل واتفقوا على الخذلان
وتمسكوا بالزور حتى خلتهم — أصلا لكل موارد البهتان
يا صاحب القلم المشع ألا اتئد — للشعب أنت ولست للأعيان
للحب أنت وللجمال فلا تقف — في الصف بين البوم والغربان
ما أشرف الحرمان يلهم شاعرا — فتفيض منه جوانب البركان

ويناضل الأحداث في غلوائها   إن النضال طبيعة الفنـان
قل لي بربك أين أنت فحولنا   ليل ونحن على الضلال حواني

في موكب الزعيم الجنوبي

التقيت به لأول مرة سنة ١٩٣١ ، وكان يدعو لإصلاح الوضع الحاضر في الجنوب ، ويدور معظم حديثه على الترميم والهدم والبناء ، وما أشبه ذلك ، وكنا زمرة من الشباب نتحلق حوله متأثرين بما نسمع ، ولم تكن نغمته التي ضرب عليها وجسّ وترها معروفة يومذاك عندنا ، لم نعهدها لدى أمثاله من زعماء الإقطاع فخفقت لها قلوبنا ، وسرعان ما خاب ظننا وتلاشى أملنا ، وعرفنا أنهم جميعاً طلاب صيد ، وعلمنا أن هذا الشذى الفواح من ذلك الوادي ، وقد شهدت معه بعض المواسم الإنتخابية التي فاز فيها عندما أراد له الحاكم المالك سعيداً في لبنان الفوز ، وفشل عندما أشاح بوجهه الكريم عنه ، وكان يقذف للمعركة بالرجال ، كما يقذف اللاعب أحجار الطاولة ، فلم تكن تسمع سوى قرع الأحجار على الخشب ، وكلمة (شاش باش) تدوي في الآذان ، وهو يراقب المعركة بمنظاره ويمدها بالمال وقودا ، والمال عصب الحرب ، يضيف إلى ذلك اتصالاته بالحاكم الكلي الاحترام ليدعو الجهاز العسكري والإداري لنصرته ، ويسخر كل ما يستطيع لرغبته ، ولا تسل عن الوعود كيف انهمرت ، والعهود كيف أبرمت ، واللسان كيف احلولى ، والوجه العابس كيف تطلق واستبشر واليد الشحيحة كيف سنحت وسالت مكارمها سيلاً ، وأخذت دوامة الحماس القوم ، وغشت على ملكة التمييز فيهم ، فحسب كل فرد منهم أن الانتصار هو له ، وأنه صاحب المنافع والخيرات والشهوات التي ستأتي ، وأن الأفراد المنتظمة بصف المرشح الآخر هي أعداء له وخصوم ، عليه أن ينتقم منها ، ويغتنم الفرصة للدس والتنكيل .

ورأيت استقبال القرويين له وفرحتهم بلقائه ، لدى زيارته لهم في موسم الانتخابات ، وإني أعرف حياة هؤلاء المساكين ، فغنيُّهم المحسود من استطاع أن يشبع بطنه ويكسو جلده وأعرف ظمأهم بالصيف وحملهم الجرار على عواتقهم وكدحهم في سبيل الماء ، وأعرف أن منابع الحياة شحيحة لديهم اصطلح عليها الجهل والكسل فنضبت أو كادت ، وأعرف أن العام الدراسي ينصرم قبل أن يجمعوا أجرة المدرسة التي تأوي أولادهم .

ولا أذكر أني أبصرتهم سعداء منعمين ، فمتى فارقهم العناء ورحل عنهم البلاء ؟ ! فذلك طبلهم يقرع ، ولواؤهم يرتفع .

نهض من بينهم رجل حسبوه للدين يعمل وهو بالشهوات والأطماع يرفل ، فحرق البخور وتلى المزمور ، ونسي آيات القرآن ، وحرب النبي للأوثان ، وقال غير ما يعتقدون أن يكون السيف فوق رأسه مسلطاً ودون أن يرجو لقومه نفعاً .

وتبعه بهلوان حسبوه أديباً ، فلفق ونمّق رافعاً عقيرته بألفاظ زائفة صفق لها الجمهور ولعلي كنت الوحيد الذي حمل عواطف المأتم وأحاسيس البلية في هذا العرس الصاخب الباسم ، فكنت أردد بيني وبين نفسي .

يا شعب لا تشكُ الأذا ....ة ولا تطل فيها نواحكْ
لو لم تكن بيديك مذبوحاً لضمدنا جراحكْ

في الوظيفة

عينت سنة ١٩٤٣ بالمحكمة الجعفرية العليا بوظيفة لم تحقق أملي ، فذهبت للوزير الذي عينني ، وظن أني جئته مادحاً شاكراً ، فسر أول الأمر ، ثم وقفت وخاطبته بقولي :

ما كنت احسب أن سيغريني الهوى
فأجد في طلب الاماني الشرَّدِ

وأبيت بين الطامعين فريسة
للوهم لم تقبض على أمل يدي
ومن البلية أن أساس بمنطق
يوحيه للزعماء خلقهم الردي
إنا شهدنا للوظائف حلبة
يجري بها فيفوز كل مبلد
أما الكفاءة فهي ظل زائل
وردت بعهدكم أخس المورد

وعند نهاية الأبيات كنت خارج المنزل أسمع صراخه ، وأحتمي من غضبه برياض الصلح ، صاحب الكلمة التي لا ترد في تلك الأيام .

وكان لي مع قضاة المحاكم الجعفرية مواقف شعرية طريفة في السنين التي قضيتها بينهم ، والتي ندبت فيها سوء حظي بقولي :

ما بين أرث قسمت أبوابه
أحيْنًا وإرث مهمل لم يحصر

ومن هذه المواقف ما يتصل بدفتر الذكريات الجنوبية ، كقولي من قصيدتي (بين بعلبك وجبل عامل) مخاطباً الشيوخ البعلبكيين :

يا بعلبك أتيت من جبل سما
وله يعود النقض والإبرام
من عاملٍ وطن المعارف والحجى
يكفيه ذا فخراً فليس يضام
كم رفَّ فوق جباله علَم وكم
جالت بمتن خيوله أعلام
وطن الجحاجح كم لهم من آية
غراء فيها عزز الإسلام
هم خلدوا الآداب في نفحاتهم
فزهت ونالت مجدها الأقلام

والشعر عندهم الحبيب المُجْتبى صلوا له بعد الإله وصامـوا
والعلم هم رُوّاده وحماتـــــه تروى وتؤخذ عنهـم الأحكام
وهم الذين تبوأوا دست العـــلى
عشقوا الكمال وبالحقيقـــة هامـوا
نثروا المعارف واستجابوا للهدى تحني لمجد السابقين الهـــام

وعندما أثرنا معركة شعرية بين الشيوخ والشعراء وقف المرحوم السيد عبد الرؤوف الأمين بجانب العلماء ، وخاطب الشيخ حسين الخطيب رئيس المحكمة الجعفرية بقوله من قصيدة :

شحذ الحسين قرائح الشعـــراء وأثارها حرباً بغير دمـــاء
وعداوة الشعراء نعـم المقتـــنى لا ترهبنك عداوة الشعـــراء

فقلت معلقاً على هذه الناحية من قصيدته :

هانت لديك مكانـــة الشعـراء وحسبت أنك فارس الهيجاء
آمنت فيك مثير أحـــلام الهـــوى
تنشي الخوالد في رُبى شقـــــراء
أيام كنت تسير في درب العلى وتثيرها حرباً على الدخـــلاء
وكفرت فيك رئيس مصلحة التقى
تذوي مع التدريس والإفتـــــاء
قل لي بربك أي حلبـــة شاعـــر
لم تكُ فيها حجـــة العلمـــاء
نصوا عليهم بالقضـاء فهـل ترى
نصا عليهـم باقتبـــام الشــــاء
نوهت بالفقراء يا ليــت الهنـا يسمو ليدخل خيمة الفقراء
لو أستطيع سكبت روحـــي بلسمـاً
لجروحهم وكبحت عاتي الــــداء

في الاذاعة اللبنانية

منذ عشرين عاماً اتصلت بالإذاعة ولم أزل ، فتهيأ لي معرفة الكثيرين من شعراء وأدباء لبنان ، ووجدت عند بعضهم إلماماً بشعراء الجنوب القدامى ، وفي طليعة هؤلاء الشاعر الكبير أمين نخلة الذي أحببته وكتبت عنه في أول كتاب صدر لي (شعراء من لبنان) واستهواني نبله وإنصافه فكثيراً ما حدّث عن مواهب العامليين وغزارة علمهم وعروبتهم الأصيلة ، ورآهم مثله تلامذة في مدرسة الإمام علي الذي أغنى تفكيره وإحساسه ، وقد طلب منه مرة بعض الشعراء أن يختار له مئة كلمة من كلام الإمام ليخرجها في كتاب ، فأجابه الأمين بقوله :

« سألتني أن انتقي مئة كلمة من كلام أبلغ العرب (أبي الحسن) تخرجها في كتاب وليس بين يدي الآن من كتب الأدب التي يرجع اليها في مثل هذا الغرض ، إلا طائفة قليلة منها إنجيل البلاغة (النهج) فرحت أسرح إصبعي فيه ، ووالله لا أعرف كيف اصطفي لك المئة من مئات ، بل الكلمة من كلمات إلا إذا سلخت الياقوتة عن أختها الياقوتة ، ولقد فعلت ويدي تتقلب على اليواقيت ، وعيني تغوص في اللمعان فما حسبتني أخرج من معدن البلاغة بكلمة لفرط ما تحيّرت بالتخيرُّ »

كما أني وجدت عند البعض الآخر لونا من التعبير لم أنسجم معه ، فقد كنا مرة حول شاعر من دعاة المذهب الرمزي يتلو علينا آخر ما أبدعه خياله ، وشاء الصحب أن أكتفي بالإصغاء دون نقاش حذراً من تعكير الجو على نفسه الملهمة التي لا تعتني بالمنطق المعقول ولا يهمها أمر النقد والتحليل والرجوع إلى المألوف عند رواد هذا الفن وأعلامه ، لأنها على ما يقول هو وأمثاله ، مواد وقواعد واستنتاجات نظرية وهذه كلها تنحط عن مرتبة الوحي ، كنا نسمع : (تمتمات الخلود ، وضجعة الليل البهيم ، وأودية الحب العذري ، وأجفان الفجر ،

وحواشي الليل) إلى غير ذلك من الجمل المصفوفة دون أن تحمل للسامع معنى أو تعبر عن شيء .

وإنصافاً للحقيقة يجب الإعتراف بتأثيرها السحري على الشاعر وسامعيه ، أما أنا فبقيت مذهولاً أتطلع بالوجوه وأراقب حركاته وهو يتلو فأجدها مختلفة غريبة ، فعندما كان يعصر قلبه ويخرجه من بين شفتيه آهات محرقة ، يقابلها السامعون باسترخاء أعضاء وإطباق جفون وغيبوبة بديعة لا واعية ، وهكذ فلكل لفظة حركة خاصة تتبع إيقاعها الموسيقي ، وكنت أسأل نفسي متعجباً هل أنا في محـل للتنويم المغناطيسي يا ترى ؟ أو هـل ما أراه نوع من الألعاب البهلوانية ؟ ثم أفكر وأطيل التأمل علّني أفهم شيئاً من هذا الجديد المبتكر المفيد فأقف حائراً أردد قول الشاعر :

ولكن تأخذ الأسماع منـــه   على قدر القرائـح والعقـول

ثم أتذكر كلمة قديمة قالها أحد الأدباء عن شاعر كبير (ينتج ما يفهمه هو والناس ، وما يفهمه وحده ، وما لا يفهمه أحد ، وهذا سر عظمته) فأضيع بين هذه الأحاجي والطلاسم فأرجع بالذكرى القهقري ويشغلني عن كل ما أنا فيه قول المتنبي :

ولكنّ الفـتى العربي فيهـا   غريب الوجه واليـد واللسان

تحدثت بالإذاعة عن أكثر من مئة وخمسين عالماً وأديباًجنوبياً والحديث مستمر ، وقد سبقني لنبش الكنوز العاملية الدفينة كاتباً ومحاضراً السيد حسن الأمين .

(وهو بسبق حائـز تفضيـلا   مستوجب ثنـائي الجميلا)

المؤلفـــات

صدرت لي عدة كتب ، تحدثت فيها عن أعلام الشعر والأدب بما وصل إليه علمي وبلغته معرفتي ، وفي النفس بقية من تواضع أعلم منها أن ما كتبت ليس دراسة كاملة ذات منهج محدد ولكن ذلك لم يمنعني من قول كلمتي .

سار قبلي في هذا الدرب كثيرون وستبقى القافلة ، سائرون ، وحداة ، وطيور تصدح ، وأنغام تنبعث من قيثارة شاعر ، وآهات من قلب متيم ، ورواد ونقاد ، ولا بد للصورة أن تكتمل كما تريده لها سنة الحياة ، وحسبي أن لا أكون من العابثين الذين يصفقون للموكب دون أن يفهموا الغاية ، أستمع إلى الكلام فأتبع أحسنه ، وأشعر بأنه ملكي استجلي من ورائه الرسالة المفيدة النابعة من صميم الروح وأعماق الشعور .

وتحدثت عن الإمام علي بكتابي (في رحاب الامام علي) وأنا أرى أنه قمة كثر حولها المتشبثون وأرادوا الوصول إليها ووقف بهم المدى عن بلوغ الغاية ، فمن أين لقلمي أن يجد طريقه في هذا المجتمع الحاشد بأرباب العلم والمعرفة والفصاحة والبيان ولكن ذلك لم يمنعني من الحديث مردداً قول سيادة الشيخ عبد الحسين صادق :

كلما بالهوى اليـــك ارتقيـــتُ　　صعقاً منك للجبـــين هويـــتُ
لك سر الهوى عليه انطويـــت　　لك طرفي حمىً وقلبي بيـت

وعن سيد الشهداء الحسين بن علي بكتابي (في رحاب سيد الشهداء الحسين بن علي) فقد فهمت من البداية أن رسالة الحسين بحاجة ماسة لإدراك يتناسب مع رفعة شأنها وجلالة قدرها ، وأن الكثير مما يعمل من أجلها في غير الطريق الذي رسمه صاحبها .

سمعت مجالس التعزية التي تقام بمناسبة ذكرى سيد الشهداء ، وقرأت الكثير مما كتب بقضيته من تحليل وتفسير لغايته النبيلة ، وهدفه السامي ، ومرت أمام

نظري في هذه السنين الطويلة التي عشتها صور كثيرة لما توحي به العاطفة الجامحة لبعض المحبين أو التفكير السليم للبعض الآخر الذي يسير في الطريق السوي ، ولم تفارق خاطري لحظة واحدة في كل تلك المناسبات الصورة الحقيقية لسيد الشهداء ومن حوله النجوم الزواهر الذين ارتفعوا بوحي الإرادة والتصميم وفعل الدين والإيمان لمرتبة حق للإنسانية أن تنحني خاشعة أمامها وتجد فيها العظة والإعتبار ، فكتبت ما أحسسته وآمنت به .

نهـــاية المطـــاف

وبعد ذلك كله بعد أن طويت السبعين من عمري بعيداً عن ديارها نشأت وتحت سمائها ترعرعت :

بلاد بهـــا نيطت علي تمائمـــي　　　وأول أرض مس جسمي ترابها

تلك الديار العاملية الحبيبة التي عنانا شأنها وطالت حسرتنا من أجلها ، والتي هتف بها قبلي الشيخ محمد حسين شمس الدين قائلاً :

سمعا فعامـــل خطبـــه جلـــل　　　يكفيك عن تفصيلـــه الجمـــل
لا تسأل الأطـلال عن أحـــد　　　خف القطين وأوحش الطلـــل
ناخت على الجبل الخطوب ضحى　　　فقل السلام عليـــك يا جبـــل

وقفت والحنين في نفسي أستعرض الماضي الجميـل وآسي على الحاضر والمستقبل وأناجي قلبي ببعض الصور والذكريات قائلاً :

يا خافقا أي المنى ومضهـــا　　　ما علل الفكـــر بوهـــم عـبر
تصرم العمـــر وسفـــر الأســى　　　يمشي مع العمـــر جديد الصور
ماغاب طيف الأمس عن خاطري　　　أستعرض الماضي فترنو الذكر

تألق الحب بها ساعة　　ما لاح نجم منه حتى استتر
والسعد يأتي للفتى لمحة　　تخبو كأن الورد منها الصدر
هذا خريف العمر ما ساءني　　إن جاءني فيه القضا والقدر
فالعيش بعد الحسن لا ينجلي　　للعين إلا عن أسىً أو كدر
تناثر الزهر ومن لوعتي　　تناثر الدمع فروّى الزهر
يا شعر إن أعطيتني نفحة　　اغنيتني فيها بهذي الدرر
فطالما رويت من مهجتي
للفن غرسا لذ منه الثمر
وطالما صليت في وحدتي　　للشعر أهفو للمعاني الغرر
وطالما أوريت فيك السنا　　من شعلة القلب ونور البصر

واستعرض في ذهني ما وصلنا إليه ، وكيف يقاوم أبناؤنا العاصفة بيد إنسان وحلم إله ، فأناجي نفسي قائلاً : لِمَ قنع جيلنا بالقشور عن اللباب ، وغفل عن الساعات الحرجة التي نعيشها اليوم ؟ ! ولم سحرتنا الألفاظ المنمقة والشعارات الزائفة فكبونا ونحن في أول الشوط ؟ ! وأرجع في الذاكرة سنين طوالا من عمري ليوم هتفوا باستقلال العراق وتوجوا الأمير فيصل ملكاً عليه ووقف الشيخ علي الشرقي مبصراً بين عميان ينادي :

في ذمة التاريخ أوطارنا　　قد انقضى العرس وشهر العسل
لو جمعت لم تك أقطارنا　　دويلة فكيف صارت دول
غدا إذا هددنا جارنا　　كيف نلاقيه بهذا الفلل
يكفي إذا أصبح مزمارنا　　يصدح أن العربي استقل

ثم أجد بالإيمان راحة وعزاء فأتوجه للنبي العربي بقولي :

يا وحي أحمد فجر طاقة العربي ... وافتحلهم صفحةمن سفرك الذهبي
أودى أبو لهب في حسرة ومضى ... واليوم فيهم ألوف من أبي لهب
مالوا عن الدين واختاروا صيارفة ... للجهل تتقن فن الزور والكذب
تنازعوا فاستباح الخطب عزتهم ... وأصبحوا موطناً للويل والحرب
لم يجمعوا أمرهم فاجتاح لُجّهم ... شعب تشرد مجهولا بغير أب
والدهر يلهو بمن ترسو مطامعه ... على المنى ويروم الجد في اللعب
تعاظم الخطب في لبنان وانبعثت ... دهياء فيه تلف الرأس بالذنب
وأوغل القوم بالتنكيل واحتقبوا ... وزر الجرائم بالمسلوب والسلب
الليل للقتل والتدمير والريب ... والصبح يقذفنا في أفدح النوب
نريده موطناً للخير مزدهراً ... بالعلم يبعد عنه كل مغتصب
ما زال ينزف والدنيا تشاهده ... مازال يقبض كذب السادةالعرب



مِن ذِكرَيات

الشَاعِر مُوسَى الزين شَرَاره



بنت جبيل ــ قضاء بنت جبيل

في هذه الامسية اسمحوا لي أن أعود بكم سبعين عاماً إلى الوراء لأحدثكم عن جبل عامل ويدمي قلبي ان اروي هذه الذكريات وأنا خارج ارضنا الطيبة التي عرفت ولا تزال أمر المحن والتجارب القاسية . لقد كانت أرضنا الطيبة وما برحت أرض الصراع ضد الظلم وضد الطغيان الأجنبي لقد خاض جبل عامل معارك طاحنة ضد الطاغي المحلي وخاض ولا يزال يخوض معارك فلسطين مع شعب فلسطين ومعارك لبنان في سبيل لبنان عربي ديموقراطي تقدمي فلقد كان الجنوب العاملي جزءاً لا يتجزأ من ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ وجزءاً من حرب ١٩٤٨ وجزءاً أكبر من حرب المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧ كما كان ولا يزال جزءاً أساسياً من الصراع اللبناني اللبناني في سبيل لبنان جديد فإذا كان هناك جزء من لبنان يحق له أن يفاخر بلبنانيته فهو جبل عامل وإذا كان هناك جزء من الوطن العربي يحق له ان يفاخر بعروبته فهو جبل عامل أيضاً . فلقد كنا ولا نزال صادقين للبنانيتنا ولعروبتنا كما كنا ولا نزال أول من يدفع ضريبة هذا الوفاء وأكثر من يؤمن بتلازم هاتين الهويتين كوجهين لمدالية واحده هي حقيقتنا وقدرنا . سأحاول في هذه الذكريات أن أعرض لكم لوحتين من جبل عامل .

اللوحة الاولى الحياة الاجتماعية والاقتصادية خلال فترة « سفر برلك » في الحرب العالمية الاولى .

اللوحة الثانية الحياة الثقافية والسياسية في نهاية الحكم العثماني وبداية الانتداب الفرنسي .

ترجمـــة حيـــاة

ولدت سنة ٩٠٢ في بلدة بنت جبيل وفي سنة ٩٠٨ توفي المرحوم والدي وهو في ريعان شبابه وبقيت مع الوالدة التي كنت أغفو وأستيقظ على نواحها وبكائها الأمر الذي أرهف حسي وجعلني أحس مع كل مصاب وأتألم مع كل منكوب وأهب لمساعدة كل مظلوم وأحارب الجور والطغيان وكل أنواع

الاستبداد « ضمن الامكان » ولكني بالرغم من هذا كنت ولا أزال متفائلاً مرحاً أتلقى ضربات الأحداث مهما قست بالبسمة والصبر والثقة بالنفس منشداً :

ولما ان رأيت الدهر بغباً ... إلى حربي ، بلا سبب ، تتطوع
لبست له متين الصبر درعاً ... وقلت له الا ما شئت فاصنع
فزد يا دهر بالنكبات إني ... اقابلها بصدر منك أوسع
وجرد ما استطعت من الرزايا ... فخصمك من عرين الليث امنع
عجبت لمن يطأطىء للرزايا ... ومن يشكو لدهر ليس يسمع
ومن يخشى ويرهب مستبدا ... ولمن لسوى الذي سواه يركع

اللوحة الاولى : الحياة الاجتماعية والاقتصادية

الذي أذكره من العهد التركي هو ما كان في سنة ١٩١٤ السنة التي توفي بها المرحوم الشيخ عبد الكريم شراره ابن المرحوم الشيخ موسى شراره العالم الكبير المعروف من الجميع حيث بهذه المناسبة جاءت وفود كثيرة لبنت جبيل من شتى القرى والمدن العاملية وكذلك الفلسطينية المجاورة للمشاركة بتشييع الجنازة وتقديم التعزية وقد حضر بهذه المناسبة أيضاً ضابط تركي مع ثلة من الجنود للمحافظة على الأمن وهذا الضابط يدعى « عارف بك الحسن » وهو عربي من طرابلس الشام — كما كان يقال في ذاك الوقت — وبعد تشييع الجنازة استدعى جميع مخاتير القرى التي كانت موجودة وأمرهم بفض التحارير المغلقة التي كانوا تلقوها من الحكومة وطلبت أن لا تفض إلا بأمر منها وقد تبين ان مضمونها دعوة « لسفربرلك » أي التجنيد العام وأنه يجب على جميع الذكور من سن ١٨ إلى سن ٤٠ أن يكونوا بتاريخ عينه لهم في قاعدة القضاء — وقد كان جبل عامل بذاك الوقت ثلاثة أقضية . قضاء صيدا وصور ومرجعيون — لاجل المعاينة والاحصاء وإثبات الوجود وقد لبى الجميع الدعوة وبعد المعاينة جندوا منهم « الاسكيه » أي « المدربون » وساقوهم فوراً وسمحوا للباقين بالعودة لقراهم وأن يكونوا تحت الطلب .

* * *

ومشهد آخر ما زلت أحسّ لدى تذكره بالألم وبالثوره في نفسي على الظلم والاستبداد . كان ذلك يوم خميس وهو يوم سوق عام في بلدتي بنت جبيل حيث تعرض فيه جميع السلع والغلال واللحوم والفاكهة والأقمشة والألبسة وغيرها ويجتمع فيه حشد كبير من أبناء القرى المجاورة من الجليل لابتياع ما يلزمهم وكانت الساعة في حدود التاسعة صباحاً وكان ذلك سنة ٩١٦ على ما اعتقد وإذا بي أسمع صوتاً متهدجاً يصيح : الله أكبر سبحان من تعزّز بالقدرة والبقاء هذا ما وعد الله ورسوله فظننت للوهلة الاولى انهناك تشييع جنازة وإذا بي أرى رجلاً مكبلاً بالحديد وعلى رأسه عمامة خضراء وقد أحيط بالجنود وكلهم شاكي السلاح فلحقت به مع من لحق فاذا على البيدر المتاخم للسوق « سيبه » معدّة هناك وقد أحرق قلبي وأبكاني في تلك الساعة منظر إمرأة عجوز حدباء يكاد وجهها يلتصق بالأرض فلا أدري هل كان ذلك من الشيخوخة أم بسبب رزيتها بولدها. اختصاراً تقدم الجلاّد وألبسه رداء أبيض مكتوباً عليه « الفرقان » أي الأسباب التي إستحق بموجبها الاعدام، وهي فراره من الجندية وكان ذلك بالقرعة التي فرضتها الأوامر العسكرية وهي وضع تسعين ورقة بيضاء وعشرة سوداء في كيس وكل من يسحب ورقة سوداء يعدم بدون محاكمة أي ١٠ ٪ : أقول تقدم الجلاد وأزاح الكرسي من تحت قدمي « السيد » فأنقطع الحبل ووقع المسكين على الأرض والدماء تسيل من وجهه وهو يصرخ كعادته ويقول: هذا ما وعد الله ورسوله والجماهير التي هي عبارة عن نساء وشيوخ وأطفال تصيح الله أكبر وتطلب له العفو ولكن العُتاة احضروا حبلاً ثانياً وشمعّوه وأعادوا الكرة فقطع الحبل للمرة الثانية وصاح الناس بصوت أقوى « الله أكبر الله أكبر » وصاح من بينهم شيخ طاعن معمم ذو لحية بيضاء ناصعة مهيبة : إتقو الله خافوا الله واعفوا عن هذا السيد الذي لا يريد الله له أن يموت كمجرم . فانقضوا عليه وراحوا يضربونه بدون رحمة حتّى اغمي عليه وهذا الرجل هو

الحاج محمد صعب من بنت جبيل الذي كان في شبابه من الابطال . . اجمالا احضروا حبله ثالثه متينة وعلقوه بها حتّى قضى رحمه الله وقد شاهدت آنذاك العشرات من النساء والأطفال قد اغمى عليهم . هذا غيض من فيض من صور الاستبداد التركي الذي لايشابهه إلا استبداد «عملائه واذنابه وزبانيته» الذين يجب أن يطلق عليهم في كل العهود اسم « خدام المخافر وسماسرتها » فلقد كانوا هناك إثناء هذا البلاء وهذه الحرب التي افرغت البلاد من رجالها وشبابها واهلكت بها الكوليرا والجوع الآلاف من الشيوح والنساء والاطفال وقضت جحافل الجراد على كل أخضر ويابس فكنت تراه في الحقول والشوارع وفي كل مكان كالسيل الجارف لا يمر بأخضر مهما كان كثيراً أو قليلاً إلا وغادره بعد ساعات أرضاً جرداء قاحلة سواء كان ذلك في الزرع أو الكروم أو حدائق الاشجار المثمرة وإلى جانب هذه المأساة كانت جثث موتى الجوع والوباء ملقاة في الشوارع تنتظر النساء وبعض الغلمان لتحضر القبور وتشيع وذلك لعدم وجود الرجال .

بهذه الأحوال والأوضاع القاسية كان « سماسرة المخافر وزبانيتها » أي الوجهاء والبكوات والافندية بالمرصاد لكل من يهرب من أشداق الموت والجوع والظلم ويمشي الليالي والأيام على الأقدام خائفاً يترقب جائعاً ظامئاً ليصل إلى بيته ويرى ما حل بأهله وأطفاله فيتلقفونه « لتسخيره » اولاً أي تشغيله في مزارعهم وحقولهم وخدمة بيوتهم إن لم يخبروا المخفر به أو يفرضون عليه ضريبة شهرية معينة يتقاضونها منه ويتقاسمونها مع المخفر وإن أبى أو عجز عن الدفع يلقي « الجندرمه » عليه القبض ويرسلونه لجبهات القتال أو يخرجون به من البلد فيطلقون عليه الرصاص بحجة انه حاول الهرب فيقتلونه كما قتلوا حسين محمد من بنت جبيل وحسين حجازي من عيناثا الذي قتله الدركي ثم ربط رجله بحبل وركب حصانه وسحبه خلفه مسافة كيلو متر تقريباً على الشوك والاحجار . ومن بعض مظالمهم ضريبة كانوا يسمونها « البلصه » بالاتفاق مع المخاتير

والوجهاء ويفرضونها على الناس وكل من يعترض أو يتمنع عن الدفع « يحوّل عنده العسكر » اي يرابط الجنود داخل بيته على فراشه وفراش عائلته بعد أن يتلفوا كل ما فيــه ويخلطوا المؤونة بعضها ببعض ، البرغل والعدس والفول والحمص والزيت والسمن والدبس واللبن والعسل وكل الموجودات . وبعــد تحطيم الأبواب والنوافذ والموقد و « الداخون » .. اجمالاً هذهالحقبة لا تعد من عمر الناس .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وكانت هزيمة الطغاة الاتراك تنفس الصعداء من ظل حياً من الناس . ولاحت لهم بداية أمل باستقلال سوريا وتربع الهاشمي فيصل على عرشها وذهبت الوفود العاملية الكثيرة للتهنئة والمبايعة والترحيب وقامت حركة صادق حمزه وأدهم خنجر ومحموذ الأحمد وراح الناس يهتفون لفيصل بكل المناسبات ويرفعون الاعلام العربيــة ويضعون الشارات عــلى صدورهم ويلبسون « البدلات الشريفية » ولكن هذه الفرحة لم تطل فقد ذرت الطائفية قرنها وكان الهجوم الغبي على بلدة عين ابل فاغتنم الاستعمار الفرنسي الفرصة وجزد الجيش الذي كان داخل الشريط في صور لايهام الناس ان ذلك خوفاً من العصابات واحتل أول ما احتل بنت جبيل وشرد أهلها ونهب كل ما بها وفرض على المنطقة غرامة قدرها ماية وخمسون الف ليرة عثمانية جمعت مضاعفة كما يقول أمين الريحاني وقد زحف الجيش من بنت جبيل إلى سوريا فاحتلها وقضى على الأمل الغالي . أمّا رجال العصابات فصادق حمزة قتل في الاردن اغتيالاً وأدهم خنجر اعتقل في دار سلطان الأطرش ومحمود الأحمد هرب إلى افريقيا حيث توفي بها واسدل الستار على المأساة .

اللوحة الثانية : الحياة الثقافية في جبل عامل

والآن أنتقل لأقدم لحضراتكم صورة عن الحياة الثقافية في جبل عامل خلال هذه المرحلة. كلكم اليوم خريجو جامعات وحملة شهادات عاليه واختصاصات

شتى تتحدثون بأكثر من لغة وتتعلمون على يد أكثر من استاذ وتدخلون عصر التعليم بالصوره والصوت ولكن دعوني اذكركم انه قبل سبعين عاماً لم يكن العلم يعني شيئاً آخر غير « فك الحرف » والمتعلم لم يكن سوى ذلك القادر على قراءة الرسالة والاديب هو القادر على تحريرها والعلم الديني كان محصوراً بعائلات معينة .

أرجو أن تسمحوا لي أن اقدم لكم شهادتي عن نفسي كيف تعلمت ومن خلالها سترون صورة حية لما كان عليه مجتمع أبائكم لقد وضعتني والدتي عند « الشيخ المحلي » سنة ٩٠٨ وكنت في السادسة من عمري فقرأت عليه الاحرف الهجائية وبعدها القرآن الكريم وبعدها الكتابة على «اللوح» واللوح هذا من تنك حيث كان السمكري يجعل من تنكة الكاز أربع الواح يبتاعها من الطلبة ويكتبون عليها بقلم غزار والمداد كان من حجر كلسي يسمونه « الفرس » كنا نذيبه في الماء كالكلس ونكتب به وكان الاستاذ أي الشيخ يكتب لنا سطراً باعلى اللوح « يسميه القاعدة » والتلميذ يكتب مثلها فبعد أن يملأ اللوح يحمله للاستاذ الذي يعاينه فاذا كان الخط جيداً والنقل صحيحاً يقول « عفارم » والا فعلى كل غلطة ضربة قضيب على يده الصغيرة والقاعدة هذه غالباً ما تكون بيت شعر أذكر منها :

تعلم يا فتى فالجهل عار ولا يرضى به الا الحمار

ومنها أيضاً .

تعلم العلم وكن أميراً ولا تكن جاهلاً يرعي الحميرا

بعدها انتقلت لمدرسة شيخ إيراني لاتعلم الخط الذي يسمونه « ديواني » وأكتبه بالخط الصغير وبالحبر لكن لا يزال القلم غزاراً لأن الريشة لم تكن موجودة وهذا الشيخ – سامحه الله – كان قاسياً جداً يضرب التلميذ بدون شفقة وغالباً ما كان يعمل بتوصية اولياء التلامذة الذين يقولون له عندما يسلمونه الطفل : يا شيخنا « الك اللحم والنا العظم » اذا « تشيطن » أو أخطأ أو اهمل واجباته . وكان عنده خزانة في البيت كالزنزانة يسميها « حبس الفار » يسجن

بها الطفل بعد الفلقة « وشمط الأذن » .

وأما الكتب التي كنا نطالعها بعد أن تعلمنا القرآن الكريم وصرنا نوعاً ما نجيد القراءة هي قصص بني هلال والزناتي خليفة وعنتره والزير المهلهل ولما تقدمنا بعض الشيء صرنا نطالع نهج البلاغة والكشكول والف ليلة وليلة ومجموعة أشعار تسمى بدائع الزهور وما يقع بيدنا وهذه الكتب كانت غالباً عند «المشايخ» لأنه لم يكن هنا مكتبات أو صحف ومجلات سوى مجلة العرفان التي كانت تسمى «الكزيطه» وكان الرجال والنساء إذا سمعوا أي خبر يقولون قالت العرفان. مع ان العرفان ليست جريدة اخبارية ولكنهم كانوا يعتبرون جميع العالم العرفان لأنها كانت النافذة الوحيدة على التراث والعلم الحديث وإذا كان جيلنا قد اتيح له أن يطلع على ما يحدث خارج جبل عامل فالفضل يعود لمجلة العرفان فهي التي أخذت بيد أوائل مثقفي جبل عامل وشجعتهم على الكتابة وحببتهم بالثقافة. يضاف إلى ذلك انها كانت مدرسة وطنية واصلاحية فمؤسسها المرحوم الشيخ عارف الزين رحمه الله ، كما عرف الجميع ، كان وطنياً صادقاً جريئاً صريحاً وكان انتسابه لرجال الدين ولعائلة عاملية نافذة يعطيه القدرة على نشر أفكار لم يكن غيره بقادر على نشرها .

في مرحلة ثانية

دخلت المدرسة الاجنبية وهي التركية التي تكرم بفتحها الاتراك سنة ٩١٣ والتي كان التعليم فيها بالدرجة الاولى باللغة التركية التي كان الاتراك يريدون فرضها على البلاد العربية لأن هذه المدرسة كانت تمنع تلامذتها التكلم بغيرها وكانت تعلمنا التاريخ التركي والحضارة التركية وعظمة « البادشاه » أي السلطان والتدريب العسكري والنشيد التركي والاغنيات .ولم يكن سوى هذه المدرسة بكل منطقة بنت جبيل والذي أذكره ان عدد الطلاب فيها لم يتجاوز المئة طالب أما عدد الاساتذة فهو واحد احد لا شريك له يدعى عبد الهادي أحمد خليل من برج البراجنة ،أحد أقرباء الشهيد عبد الكريم الخليل ،وكان عازباً وفي ذلك الوقت كان لا يوجد مطعم في البلدة فيفرض كل يوم على عدد معين من التلامذة

تأمين طعامه اليومي وبالطبع لم يكن هذا الطعام من نوع واحد فكان عنده طنجرة صغيرة يضع فيها كلما يأتيه من طبيخ ويخلطه ويضعه على النار ويأكله. وعندما ذهب الأتراك ذهبت المدرسة معهم وخرجنا بدون شهادة رسمية وأخذنا الشهادة الذي كان يعطيها للتلميذ الكبار الذين يجيدون قراءة المكتوب فكانوا يمتحنون الولد بالقراءه والكتابة فإذا اجادهما قبلوه وقالوا اذهب مبارك ختمت وجمعت الحرف .

كيف بدأت كتابة الشعر

بعد المدرسة كان على من يحب الثقافة أن يتابع تحصيله بنفسه وأن يقصد مجالس رجال الدين حيث كان هؤلاء يتندرون بالشعر ويحفظونه ويروونه ويعنون بالاخبار ويمتحن بعضهم البعض الآخر بقواعد اللغة ويتراسلون بالاشعار وقد جذبتني هذه المجالس اليها خصوصاً مجلس المرحوم الشيخ علي شراره العالم والأديب والشاعر الذي كان يرعى نشأتي الأدبية والقى لديه كل تشجيع .

وأذكر ان أول محاولة شعرية لي قد نظمتها في سن الرابعة عشره وهي من نوع الزجل قلت :

يا ابن عامل يا رفيقي ... طولت بها النومي كثير
نشفت قلبي وريقي ... انت وتقلي بكير
انت وتقلي تستنى ... لا بد لي من يقظه
الفرصه راح تفلت منا ... والعمر بكرا بيمضي

كما أذكر انني كتبتها بقلم رصاص على خزانة خشبية كانت عندنا في البيت وقد نهبت مع مانهب سنة ٩٢٠ . وقد استهواني العتابا والأغاني الشعبية مثل دلعونا وأبو الزلف وغيرها وقد كانت أول قصيدة لي سنة ٩٢٨ نشرتها في مجلة العرفان وكان عنوانها « العلم » ومطلعها :

العلم نور يهتـــدى بسنائـــه لولاه تاه الكون في ظلماتـــه

وقد ختمتها بعرض حالة الجهل التعيسة في الجنوب فقلت :

عجباً أراه وقد تلألأ نـــوره وهدى الانام إلى الهدى بضيائه
واهاب فيهم داعياً فتجنـــدوا ومشوا لحرب الجهل تحت لوائه
الاّ بنو وطني إذا اغشاهـــم في نوره وثبـــوا إلى اطفائـه
والمطفئــــــــون له هـم كبراؤه يا ويح هذا الشعـــب مـن كبرائـــه
قد اوصدوا باب العلوم بوجهه ليظل يخبط في ظـلام غبائـه
أرأيت اسوأ حالة من موطـــن كبراؤه والدهـــر من اعدائـــه
والعلم فيه مكافـــح ومطـارد كالفقر اوكالداء من زعمائـه

وبمقدار ما كان سروري عظيماً لنشر العرفان القصيدة التي رأيت بها اسمي لأول مرة في مجلة كان غضب وجهاء بلدتي الذين تداعوا فيما بينهم إلى اجتماع في النادي الحسيني لكي ينظروا في أمري بعد أن اعتبروا قصيدتي نوعاً من الحكي « على الاوادم » الأمر الذي لا يجوز أن يمر بدون سؤال وجواب وهكذا وجدت نفسي في معركة مستمره ومتواصله باتجاهين . الأول الدعوة إلى العلم والتنوير كوسيلة للنهوض والتقدم · والثانية لمحاربة القوى الاجتماعية والدينية الرجعية التي كانت ترى العلم كفرا وزندقة · وقد قادني المشوار الطويل على هذا الطريق إلى مجابهات عديدة كان أبرزها مع بعض رجال الدين الذين حكموا بكفري وسفك دمي عام ١٩٣٣ بعد قصيدة بعنوان لا تذكر الشرق جاء فيها :

لا تذكر الشرق لا تفخر بدولته ما الشرق إلا خيال في حقيقتـه
الشرق نضو نيوب الداء تنهشـه ورأسه من قديم أس علتـــه
داء التعصب قدماً كان آفتـــه ولم يزل عثرة في درب نهضته

فكيف يبرأ هذا الشرق من سقم ومدية الدين تفري في حشاشته
الشيخ حول للتفريـق جامعـــــه والقس يبذر حقداً في كنيسته

فلقد اعتبرت هذه الأبيات كفراً وارتداداً عند البعض في جبل عامل بينما كانت بالعكس عند علماء النجف الاشرف ومنهم العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذي قال بعد الاطلاع وكتب بخط يده شهادة لم تزل محفوظة عندي :

« سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم . الدين عند الله اجل واسمى من أن يزول بهذه الاقوال الشعرية والخيالات الوهمية »

وقال الامام السيد أبو الحسن :

« لا أرى في هذا الشعر ما يشعر بالكفر او الارتداد » وقال العلاّمة الشيخ حسين مغنية « ان الشاعر مؤمن بذات القصيدة بقوله :

خلوا الصلاح وهارونـــا وشأنهما
دعوهما يرتعا كـلاً بجنتــــه

أما العلامة السيد محسن الأمين ، الذي كان رائداً من رواد الاصلاح ، فقد قال بعد اطلاعه على الفتوى « اني أرى الافضل للذين يطلبون العلم ويكبرون العمائم ليكفروا عباد الله ان يرقعوا المدس » وقد شجعني هذا التأييد من جانب عدد من كبار العلماء على مواصلة التفريق بين الدين وبين استغلال الدين فنشرت قصيدة في مجلة العروبة قلت فيها :

قالوا كفرت فقلت في افعالكم وسخرت من تضليل كل مدجل
يغري الانام بعمة نسجــت على نول الرياء لصيد كـل مفضـل
كبرت قماشاً انما صغرت حجى فبدت كبرج فوق حبـة خردل
قسماً بقدس ترابها لو انطقــت لتألمت من لمس تلك الانمـــل

قد كنت اخشع إن رأيت عمامة كخشوع راهبة أمام الهيكل
والآن إن لاحت أفرّ أمامهـــا ذعراً فرار طريدة من اجدل

* * *

وقد تطورت المعركة واتسع نطاقها بين طلاب العلم في جبل عامل وفي النجف . في هذه الفترة بالذات تأسست عصبة الأدب العاملي بالنجف الاشرف وكان من أبرز أعضائها الساده : الشيخ علي الزين الشيخ عبد الكريم مغنية الشيخ حسين مروة ، المرحوم الاستاذ محمد شراره المرحوم الشيخ محسن شراره السيد هاشم محسن الامين وقد كانت هذه المدرسة بداية حركة ثقافية اصلاحية داخل المدرسة الدينية أولاً ثم انعكست أثارها على الحياة السياسية في جبل عامـــل فاصبحت هناك حركة شباب بمواجهة الرجعية المحلية وكان من أبرز مؤيديها في أوساط رجال الدين المرحوم الشيخ عارف الزين بشخصه وبعرفانه والشيخان العلامتان أحمد رضا وسليمان ظاهر. ومن هذا الوسط انبثقت الفكرة الوطنية والعربية في الجبل وقد عمقت هذه الحركة جذورها الثقافية والسياسية بدخولها ميدان محاربة الأنتداب واذنابه والظلم الاجتماعي . ومن السياسة التي خاضتها الحركة الوطنية – حركة الشباب – معركة الانتخابات الفرعية في النبطية سنة ٩٣٥ بعد وفاة نائبها فضل الفضل لقد استشعرت حركة الشباب قوتها فخاضت الانتخابات بمرشح يعادي الأنتداب وتشاء الصدف ان لا يجرؤ أحد في الجنوب على قبول مثل هذا الترشيح فينصح المرحوم رياض الصلح باقناع عبد اللطيف الاسعد بخوض المعركة وكان هذا قد هجر بلدته الطيبة وسكن في بلدة هونين بعيداً عن أي طموح سياسي . وكان رأي رياض بذلك الوقت انه لا يمكن محاربة « ابناء العائلات » الا باندادها. وفعلاً ذهب المرحوم رياض التامر إلى هونين وأحضر خاله عبد اللطيف الاسعد إلى بيروت وقابل رياض الصلح وجرى ترتيب الترشيح وتجنيد الشباب في الجنوب لخوض معركة وطنية بشخص عبد اللطيف الأسعد وبالفعل كان ذلك . فيوم الانتخاب وكان يوم احد اتت وفود القرى لمركز الاقتراع في بنت جبيل تتقدمها الخياله والسناجق « الأعلام » والنوبه وكان الهتاف الوحيد . اهزوجة تقول :

بشكوف(١) خبر دولتك سلطاننا عبد اللطيف
باريس مربط خيلنا ورصاصنا يزعزع جنيف

وجرى الانتخاب بحماس بالغ من الجماهير بكل المناطق ولولا التلاعب بالاصوات لنجح الاسعد ولكن الانتداب وضع كل ثقله لإسقاطه وفي هذه المعركة قلت قصيدتين تظهران المحتوى الوطني الذي أردناه لهذه الانتخابات. ففي مهرجان الطيبه الذي اقامه الشباب لعبد اللطيف الاسعد قبل الانتخابات القيت قصيدة منها الابيات التالية :

بلادي يا جنان الخلد حسناً ويا أرض النبوغ والابتكار
ويا أم الألى جلّوا وصلوا بميدان المكارم والفخار
ويا أم الكماة بكل روع ويا غاب الضياغم والضواري
فديتك لا تقولي راض شعبي واسلس للهوان وللصغار
انذعن للهوان ونرتضيه وفي ايماننا بيض الشفار
اذن لسنا الاباة ولا نمتنا ليوث الحرب من عليا نزار
ولا نحن لضيغم كربلاء ولا نحن لصاحب ذي الفقار
ولا لأشاوس يعزى اليهم اباء الضيم مع حفظ الذمار

* * * *

لعينك « شبل نصّار » المفدي شباب لا يروغ ولا يداري
اذا انشدت شاردة رواها كما يروي الفقيه عن البخاري
شباباً لو يقاد بالمعي عروبي الشمائل والنجار
لما زلت به قدم وبيعت كرامة شعبه من كل شاري
ولكن الألى قادوه كانوا ذيول الانتداب والاحتكار

(١) المستشار الترنسي بشكوف الذي كان مثالاً للغطرسة والاستبداد .

وعبدانــا أرقـــاءً صغــارا لكرسي الوظيفــة والنضــار
لقد نحروه قربانــاً سمينــــا زكاةً عنهـــم للمستشــار

وفي الختام قلت :

افتيان الحمى وشبـاب قومـــي ومن باتت محبتهـم شعـــاري
اقول لكم وقـــول الحروحـــي وها أنا ذلك الحر « الشراري »
بان العهـــد – عهـد الجور – امسى على درب الزوال والانهيـــار
وان ذيوله باتـــت فلـــــولا وأشباحاً برسم الاحتضـــار
الا ابلغ طغمة باعت بــــلادا وضحت بالقرابـــة والجوار
مشى ركب الشبـاب وجئت فيه احاسبكـــم على ضـــوء النهار
فويــل للعميـــل إذا التقينــــا غداً ومشى امام الشعب عاري

ومن القصيدة الثانية التي القيتها في حفلة تأبينة في الطيبه اي تأبين المرحوم عبد اللطيف الاسعد التي حشدت لها الحكومة كل موظفيها الكبار من وزراء ومدراء ومحافظين وقائمقامين وضباط جيش ودرك لتجعلها حفلة رسمية ولكننا فوتنا عليها الفرصة وجعلناها حفلة شعبية وطنية . قلت :

نضام ونقذي منهم في ديارنــا وان نشتكي قالوا عصوا وتمردوا
لهم ان يبيدونا وان يفتكوا بنـــا لهم ان يقولوا ابعدوهم فنبعـد
ولكنهم لا يستطيعـون ان نرى مظالمهم تترى علينـــا ونحمـــد
فقولوا لهم ما شئتم لا يضيرنـــا سواء لدينا سخطهـم والتودد
فان الردى اشهى لنا من معيشــة يعلىَّ بها وغد ويخفض سيـد
وقولوا لمن باعوا البلاد برتبــة وشادوا صغاراً بالدخيل ومجدوا
لكم دينكم فيما ترون فانـــني به وبكم دون البرية ملحـــد .
أأعطي يدي للغاصبين وثائــر انادي وارضى بالهوان واخلد

خذيني عزيزاً يا منون ولا أرى | بلادي على ضيم تبيت وترقد
ينعم فيها وغدها ودخيلها | وكل ابي عن حماها مشرد
متى تنتضي اساد « عامل » بيضها | متى ينجلي هذا الدجى المتلبد
متى يرجع الحق السليب لاهله | متى « عامل » يهنا ويرقى ويسعد

المعركة السياسية

أما المعركة السياسية الثانية التي كنت شاهداً عليها فهي انتفاضة بنت جبيل عام ١٩٣٦ انتصاراً لقضية مزارعي التبغ التي كانت ولا تزال الهم المعاش لابناء جبل عامل . وفي عام ١٩٣٦ حضر إلى المنطقة المطران المعوشي الذي صار فيما بعد كاردينالاً واتفقنا معه على المطالبة برفع اسعار التبغ واعطاء مساحات اوسع للمزارعين وقد كتبت مظبطه بهذه المطالب واودعت منزل المناضل المرحوم الحاج علي بيضون ولكن المستشار بتشكوف علم بأمرها فاوعز للدرك في بنت جبيل بمصادرة المضبطه واعتقال الحاج علي وكانت ليلة عاشوراء ، والناس مجتمعة في الجامع الكبير . جاء من يقول لنا : اعتقلوا الحاج علي فهرع الناس إلى السراي بتظاهرة هادرة تهتف ضد الانتداب فأخلى رئيس المخفر سراح الحاج بانتظار وصول تعزيزات عسكرية وفعلاً وصل البلدة ليلاً ما يقارب المايتي جندي فطوقوا العدد الكبير من البيوت واعتقلوا ما يقارب الثلاثين من شباب ووجهاء البلدة وقد كان رد الفعل الشعبي عنيفاً فتجمهر الناس أمام السجن وكانوا من أهالي البلدة والقرى المجاورة خصوصاً من عيناتا التي لعبت دوراً رئيسياً وحاسماً وقد أخذ بعض الشباب ينقب جدار السجن ليخرج السجناء منه وما زالت صورة المرحوم حسن بسام من عيناتا أمام ناظري وهو يكسر باب السجن ويدعونا للخروج تحت وابل الرصاص الذي كان يطلقه الجنود على الجمهور وقد استشهد في هذه الانتفاضة ثلاثة هم : مصطفى العشي من بنت جبيل ومحمد جمال وعقيل دعبول من عيناتا وعند المساء جرى نقل المساجين إلى صيدا فتجمهر الناس في صيدا تأييداً لانتفاضة بنت جبيل وفي اليوم الثاني عم الاضراب

جميع مدن وقرى الجنوب وكذلك مدينة طرابلس وقد بلغ تأييد المزارعين للحركة حداً جعل بعضهم يزحف على طريق بيروت حاملاً الآت الحرث والفلاحه. وخوفاً من ان يحاصر سجن صيدا كما حوصر سجن بنت جبيل من قبل ارتأت سلطات الانتداب نقل المساجين إلى سجن الرمل في بيروت وقد انزلونا بالقاووش رقم ٢ على ما أذكر فاستقبلنا في بيروت بنفس التأييد من قبل الشباب الوطني وقد قلت في وصف سجن الرمل آنذاك :

سموك سجن الرمل ما انصفوا لو انصفوا سموك أوتيلا

وقد أردت بهذا البيت ان اصور شعورنا أمام الفراش الوثير والسجاد الفاخر وأنواع السجاير والزهور التي وصلتنا إلى داخل السجن.

وفي اليوم الثاني جيء إلى سجن الرمل بالمرحوم الشيخ عارف الزين صاحب العرفان وبالاستاذ عادل عسيران والاستاذ الفرد أبو سمرا صاحب جريدة القلم الصريح المرجعيونية وقد أرسل لي من السجن أيضاً المرحوم سليم أبو جمرا بطاقة يخبرني انه سجين وانه ترك صور مضربة والتظاهرات قائمة وكانت هذه المدينة أقل مدن الجنوب حماساً فأرسلت إليه الأبيات التالية :

اذا ما أرجع الاموات عيسى وناجى الله بالطور الكليم
وكلم احمدا بالقفر ضب فهذي صور أيقظها سليم

وقد مكثنا في السجن مدة شهر تقريباً وقد أفرج عن المساجين لايقاف انتفاضة كبيرة كانت قد أخذت تتفاعل على صعيد جبل عامل ولبنان ولدى خروجنا من السجن ذهبنا جميعاً إلى النبطية حيث جرى لنا استقبال حافل واحتفال وطني كبير والقيت هناك قصيدة كنت كتبتها في سجن الرمل عنوانها « أنى يكون الليث فهو الغاب ».

لا السجن يثنينا ولا الارهـــاب ما شئت فاصنع ما عليك عتاب
لا يطمعنَّ بنا عميـل غـــره منا السكوت ومنكـــم الالقاب
نحن الليوث فهــذه أثارنــــا إما جهلت وهـذه الاحســاب
اسجن وشرد ما عليك غضاضة أنىَّ يكون الليث فهـو الغـاب

وضع المـــرأة

قبل الختام لا بد لي ان احدثكم عن وضع المرأة الذي كان سيئاً للغاية فلقد كانت في ظلمات جهلها وعبوديتها وكانت بنظر الكثيرين عباره عن وعاء توليد وخادمة للزوج ولأهله ولأولاده « وعاملة » بالوقت ذاته مستعبدة لا حرية لها ولا رأي، يزوجها ولاة أمرها ممن يريدون بالقوة «والغصب» وان ابت فمصيرها الموت. بهذه المناسبة كتبت الأبيات التالية ونشرتها في مجلة « العاصمة » التي كانت تصدر في بيروت وكان صاحبها الاستاذ كرم ملحم كرم تحت عنوان :

ميطي حجابك

وثق الفتى الغربي من اخواتـــــه فرمى الحجاب ومزق الاستارا
ومشى وسرن إلى الحياة فلم يكن غير اليمين لها وكنَّ يســارا
والشرق محتفـظ بهـن كأنـــه ورع تسلّم صبيــة قصـارا
أو كالبخيل اصاب يوماً درهما فتراه كيف يصونــه محتـارا

* * * *

ياشرق حسبك من شقائك ماترى دعنا ودع فتياتنـــا احـــرارا
عبثاً تحاول صونهـــن ببرقـــع أو تتقي بحجابهـــن العـــارا
علّم وهذب ان اردت صيانــة وانسج لهن من الرقي خمـارا
لا تأمنن على العفــاف جهولــة ولو ان جعلت لها الحديد ازارا

* * * *

يا غادة الشرق الشقي إلى متى تتحملين مذلــة وصغـــارا
ميطي حجابك لا يصدك معشر الجهل « ابقاهم لنا تذكارا »
ان لم يكن لك من عفافك وازع عنك يذود الفحش والفجـارا
ما أنت لي اخت ولست بحاجـة ان ابتني لأصونك الاسـوارا

فقامت هنا قيامة الرجعيين والغيورين على « العرض » وانهالت الردود والشتائم من كل الانواع فرددت على هذه الحملة العنيفة بالابيات التالية :

ان قلت ما لفتاتكـــم في البيت باتت مودعه
مسجونـــة كالاثمـين وكاللصوص مقنّعـة
صيرتموهـــا ناسكـــاً والبيت أصبح صومعه
لا قـال الله ولا النبي ولا الصحاب الاربعة
ان لا ترى شمس النهار ولا الحقـول المرعـة
ماجت هنـاك عمـائم وتأهبـــت للمعمعـــه
وسطت علي ببلســـنٍ مثل الاسنـة مشرعة
فكأن قتلـت بكربـــلا سبط النبي ومن معه

* * * *

اخت المهى كم تصبرين على المذلـة والضعـة
ميطي حجابك واسخري من « زمرة » متنطعة
ابداً بتافهـــة الأمـــور وبالسفاســف مولعـة
قولي لهم لا تحفـــــلي ولو ان أثاروا الزوبعة
لا يرتقي وطـن بـــه « ام البنين » مضيعـة
جحد الجمـــال وعقـــه
من في حجــاب ضيعـــه
ان كان اثمـا عرضـــه فلمن الهك ابدعـه ؟ !

وعلى ذكر المرأة ففي سنة ٩٣٤ على ما أذكر حضر لبلدتي بنت جبيل الأديب اللبناني الدكتور جورجي باز الذي كان يدعي « نصير المرأه حضر ليطلع عن كثب على وضع المرأة العاملية فشاهد كما تقدم وضعاً سيئاً وتخلفاً محزناً وان المرأة مسلوبة الحقوق أمية ١٠٠ ٪ فراح يتحدث للرجال الذين هم بحاجة بذاك الوقت لمن يطالب لهم بحقوقهم ولمن يذكرهم انهم رجال . فعندما رجع لبيروت نشر مقالاً في (مجلة العروبة) يصف ما شاهده ويندد بالوجهاء والزعماء ورجـال الدين ويتمنى عليهم الأخذ بيد المرأة وبقلمها لتساهم بنهوض هذا الجيل الذي انجب الأديبات امثال الشاعرة والطالبة زينب فواز والشاعرة زينب الأسعد . فاجبت على مقاله بهذه الابيات في المجلة ذاتها تحت عنوان :

حجب الذكرا

لو ان غيرك يا ابن الباز خاطبنـا … بمثل ما قلت قلنا ويحه كفـرا
اتيت تطلب تحرير الفتـاة وان … ترمي وتنزع هذي الحجب والازرا
وتنهل العلم أو تجني كجارتهـا … في «المتن والشوف» من جناته الثمرا
وتقرض الشعر او تشدو فتسمعنا … منه الروائع والايات والغررا
فتطرد الجهل والحرمان عن مدن … وعن ديار ـ جفاها اهلها ـ وقرى

★ ★ ★ ★

هوّن عليك فما لبنان عاملـة … فنحن «أكبر من ان نكبر الشعرا»
ما للفتاة وما للشعر في بلـد … لو امكن البعض فيه «حجب الذكرا»

هذا هو وضع المرأة وهكذا كان في جنوبكم سيئاً ككل الاوضاع . هنا استودعكم الله واشكركم وقبل الختام اقول :

ليـس في قـولك معـنى … ان مضى من غير ضجـة
ان صـوت الحـق يبقـى … في فم الاجيـال حجـة

ورخيص القـــــول يبقـــى
مثـل ماء فوق ثلجـــــه

كـن على الظـــــالم ذئبـــاً
ومع المظلـــــوم نعجـــه

واجعل الصـــــدق سفينـــا
ان رأيت الكـــذب لجـــه

لقد خدعونـــا (١)

يقول رفاقي ما لصوتـك خافتـــاً
وكان بعهد الانتداب يلعلـــع

فما خفت بطش الانتداب وعنده
عدا السجن اسطول وتنك ومدفع

وترهب في عهد لنا في بنائـــه
وحرب اعاديه دماء وادمـــع

وفي ثورة التحرير من كل غاصب
وطاغ لنا باع وكف واصبـــع

سل السجن تنبيك الغياهب كم به
جرعنا من الآلام ما ليس يجرع

ألم يكف الاستئثار بالحكم دوننا
الم يكف مال كدسوه وجمّعوا

ألم يكفهم «ابطال تشرين(٢)» عنهم
مع الناس قلنا وادعينا كماادعوا

وقلنا بشامون(٣) عرين وكلهـم
هصور – اذاريع العرين – سميدع

فلولاهم الجزار لم يخل ارضنا
ولا هي باستقلالهـــا تتمتـــع

فما بالهم في عهدهم – ويح عهدهم –
عن البث حتّى والشكاية نمنـــع

فاين قوافيك التي هـي ثـــورة
تدك الكراسي تحتهم وتزعـزع

رويدك ان السيل قد بلغ الزبـــى
ولم يبق في قوس التصبر منزع

فقلت رفاقي داؤنا اليوم معضـــل
فلا نظمنا يجدي ولا النثر ينفع

بنا داء خلـق باحتيـاج لمبضـــع
وما عندنا « للخلق » آس ومبضع

وحكام هذا العهد بالاذن منهـــم
على عدم الاصغاء للقول اجمعوا

---

(١) القيت في بيروت بالاجتماع الشعبي الذي عقدته كتلة التحرير برئاسة الزعيم المرحوم عبد الحميد كرامي سنة ٩٤٩

(٢) لقب اطلقه على أنفسهم الذين اعتقلوا سنة ٤٣ في قلعة راشيا

(٣) قرية في الشوف

اصموا عن الشكوى الجريئة سمعهم ... فليس سوى المدح المزيف يسمع
فكم شاعر اطراهم لا لأنهـــم ... كرام وابطال وصيد كما ادعوا
ولا هو غر ليس يدري بأنهـــم ... همو دمروا ارض المعاد وضيعوا
ولكنه هر لرشـح اكفهـــم ... يموء وفي وصل الوظيفة يطمع
ذليـل اذا ما قيـل في الصين ظـالم ... يطأطىء في لبنان هاماً ويركـع
له الويل من يطري أبا لقوم ثائـر ... أبيُّ تغنيه القوافي فتبـــدع
فها هو لبنان الحبيب كما يرى ... على الصحب والانصار فيءٌ موزع
غدا ضرع شاة رغم أنف أباتـه ... واحراره فيه المحاسيب ترضع
تقاسمه الاقطاع فهو فريســة ... تمزقه ذئبانهـــم وتقطـع
اذلوا بنيـه بعد عز فكلهـم ... اخو حاجـة في بابهم يتسكع
لقد خدعونا والكـريم بطبعـه ... وان كان أذكى الناس بالناس يخدع
فقلنـا بهم ما لم يقلـه فـرزدق ... ودعبل قدمـاً بالكرام ومربع
وسرنا وإياهم نعب من المـنى ... كؤوساً كصهباء المدام ونكرع
ونبني علالات الأماني رفيعـة ... ونغرس امـالاً كباراً ونزرع
غداة لنا «الابواق» قالوا بانهم ... على سحق اعداء التحرر اجمعوا
وان طبول الحرب منهم بقدسنـا ... لتطهيرها من غاصبيها ستقرع
فهذي فلسطين ـ بفضل جهادهم ـ ... لاعدائها دار وربع ومرتـع
تشرد اهلوها واخلوا مرابعـاً ... تبللها منهم دمـاء وادمـع
فللنار أكل دورها وقصورهـا ... فاني اجلت الطرف قفر وبلقع
«وللتائه المنبوذ» بعد حماتهـا ... ـ ربوع العلى ـ فيها مقيل ومربع
لقد نال منها فوق ما كان يشتهي ... ويبغي عدو من عدوٍ ويطمـع
شفى حقده منهـا وها هـو نحونا ... بمقلة ذئب جائع يتطلـع (١)

---

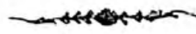
(١) المقصود انه بعد ما ابتلع فلسطين راح يتطلع نحو لبنان

ونحن -بحمدالله- مازال شملنا
تهدمه اهواؤنـــا وتصـــدع
وحكامنا بالرغم مما اصابنــــا
وما مثل الاعداء فينا وفظعوا
وبالرغم من عارٍ على الدهـر والمـدى
لبسناه برداً ضافياً ليس ينـــــزع
تواصوا ولكن بالخصام فكلهم
لصاحبه افعى تدب وتلســع
فلم تجمع الشمل المصيبة بينهـم
ولم يسمعوا ان المصيبة تجمــع
ولم يذكروا تلك الوعود وقولهم
لمن طوردوا مناوضيموااوروعوا
وزجوا باعماق السجون كأنهم
جناة وعبوا كل صاب وجرعوا
غدا ينجلي هذا الظلام وشمسكم
تلوح -كما يهوى الكرام- وتسطع
ويصبح كالفردوس لبنان بهجة
ونحن بها الابرار نجني ونرتع
فراحت قوافينا تشيد بمدحهـم
وتهجو الذي يهجوهم وتقرع
ولكنهم لما دنا الحكـم منهـم
وفوق الكراسي في القصورتربعوا
لووا دوننــا جيداً وعن ما يسيئنـا
ويشمت اعدانا بنا ما تورعــــوا
فكلهم « المندوب » امسى وكلنـــا
« رياض » (١) يعادي منهـم ويروّع
فعدنا لعهد الانتداب وأهلــــه
نحن وندعو لو يعـود ونضرع
لئن ضاع حر الرأي والقول عنده
فها هو في «عهدالكرامة» اضيع
وإن رفعت فيه الجواسيس للذرى
فها هي في عهد «المجاهد» ارفع
وان شفعت قدماً لديه بخـــائن
فها هي في احرارنا اليوم تشفع
فلو دام فينا ما تكشف سترنـــا
ولاكثر المهجو بنا والمقـــرع
ولا ابصر الشعب المغرر أوجهاً
مشوهة كانت بــه تتقنــــع
بدونا لدن ولى وبانت عيوبنـــا
كوجه دميم كان يخفيه برقع

(١) المراد ان المناضلين الوطنيين حلوا محل المندوب السامي

مِن ذكريات

الصُحفي ألفِرِد أبو سَمْرا



جديدة مرجعيون ـ قضـــاء مرجعيون

مرجعيون الرائـدة

الاستاذ الفرد ابو سمرا

أشعر بسعادة لأني الآن بين أهلي وأبناء قومي في الجنوب .
هذا الجنوب الذي لم أتركه بالجسد إلا ثلاث مرات :
الاولى يوم سافرت إلى الولايات المتحدة .
والثانية يوم سافرت إلى البرازيل .
والثالثة في هذه الأيام ...
ولهذا الغياب ذكريات :

ففي الولايات المتحدة شاهدت حفلات تقسيم فلسطين وغضبة الجالية العربية على هذا التدبير . وفي البرازيل استقبلني رئيس مجلس النواب محاطاً بثمانية عشر نائباً من أصل لبناني وقال : « أنا فخور في هذه المجموعة من أصل لبناني ونحن مدينون لها – للجالية – بكثير من حضارتنا . » فقلت له بعد الشكر ان خارطة البرازيل تشبه إلى حد ما القلب ولبناننا في قلبها .

وفي المرة الثالثة كثير من الذكريات ...

أما بالروح اثناء هذا الغيـــاب فقـــد كنت وما زلت في الجنوب ، وفي مرجعيون بالذات – كنت في مجموعة جريدتي القلم الصريح صبحاً ومساء اتصفح مجلداتها سنة فسنة من عام ١٩٣١ حتى آخر عدد صدر في عام ١٩٧٦ ، واستعيد ذكريات العز في الجهاد ، وتحمل المسؤوليات ، والبذل ضمن الطاقة في سبيل الوطن العربي الكبير .

وذكريات طلائع من كتبوا لهذه الجريدة المتواضعة الكبيرة باهدافهـــا وأصدقائها وهم النخبة في القدوة الفكرية والوطنية فكان أمين الريحاني طليعة من دفع الحوة حسب تعبيره ... الا

« اليك الحوة يا أخا العرب أوليات .. »

« نريد ديناً ركنه المعرفة وجهل اللاهوت وعلم الكلام ، ديناً يعلم الناس وحدة الاديان والاخاء الانساني ، فانت والقلم الصريح للبنان العربي وللعرب ، حياك الله وقواك وأجزل جزاءك ، وخير الجزاء كرامة تعود إلى لبنان ، وبصيرة تريه الخير في الاخوة العربية .

* * *

وبعد الامين كانت صفحات القلم الصريح تتزين بمقالات شيوخ علماء وادباء وشعراء ووطنيين سياسيين ومعظمهم صار في دنيا الحق منهم الشيخ احمد عارف الزين والشيخ سليمان الظاهر والشيخ احمد رضا وعارف النكدي وعبد الله النجار وفؤاد جرداق وفارس الخوري وفخري البارودي وحليم دموس ويوسف احمد نجم صلاح الدين المختار والاخطل الصغير وبولس سلامه . وفيليب حتى وفؤاد مفرج رحمهم الله والنجفي الصافي ولبيب غلمية وتوفيق قربان وفارس الدبغي ووديع ديب وموسى الزين شراره وعبد المسيح محفوظ وأحمد ومحمد سويد وعادل عسيران وإبراهيم حداد وعبد الحسين عبدالله والشاعر القروي وسواهم كثيرون .

وهم على كل حال من الثروات التي تختزنها مجلدات جريدة القلم الصريح.

* * *

أيها السادة عندما تلطف الأستاذ حبيب صادق وزارني هو والاستاذ سلام الراسي وطلب مني ان اتكلم في هذا النادي ، وحدد لي الوقت ساعة حتى الساعة ونصف ... قبلت الدعوة شاكراً ، ولكني في سري رفضت تحديد الوقت ساعة ونصف لسببين :

الاول : اني لست ذاك الذي لا يشبع الناس من اقواله ، فالجندي غير

الجنرال يا سادة وأنا من صف الجنود وما في خزانتي محدود ، وإذا كان هذا المحدود عسلا فقد يشبع السامعون منه بلقمتين ...

والثاني : ان الناس خصوصاً ناس الجنوب مرهقون من الاوضاع القائمة ولا أريد أن ازيد عليهم بما قد يحتملون من بضاعة الحكى ، وقديماً قال جبران خليل جبران :

« تعبت روحي من الكلام والمتكلمين . »

« والكلام يتعبني وينتصب أمامي راقصاً صارخاً معربداً . »

« الكلام في كل مكان فإلى اين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟ »

« لو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ولكنهم أنواع وأشكال لا عداد لها منها :

« طغمة الزرازير التي قال عنها الشاعر :

ان الزرازير لما قـــام قائمهـــــا

توهمت انها صارت وشواهـــــينا

« وطغمة الاجراس وهي تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها .. »

« وطغمة النوالين التي تحوك الهواء بالهواء ولكنها تظل بدون قمصان ولا سراويل . » وتابع جبران : « والان وقد ابنت بعض قرفي واشمئزازي مـن الكلام والمتكلمين اراني كالطبيب المعتل يهجو الكلام بالكلام فهل يغفر الله ذنبي قبيل ان يرحمني وان ينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمون . »

* * *

من مدرسة جبران تعلمت الاشمئزاز من الكلام بدون طحن ، وتعبت نفسي في حرب الخمس سنوات من الكلام والمزايدات والعنتريات ، مع هذا

فقد كان ثمة الكثير من خبايا في الزوايا لا يستطيع أي إنسان ان يتكلم عنها خصوصاً في العهدين العثماني والانتدابي الا قلة من الناس الذين تحملوا الآلام باعلاء كلمة الحق ، والحق يحتاج إلى رجلين الواحد لينطق به والآخر ليفهمه كما قال جبران ، وقد اتخذت من آلامهم شعاراً لجريدتي ، وغذاء يختلف عن غذاء الظلم لاكليه ليسكتوا عن الشواذات ، وهذا السكوت سيسبب على المدى الطويل سرطاناً يقضي على آكليه .

* * *

وبكل حال شكراً للذي دعاني باسمكم لاعلن ليس على مذهب يا ايها الرجل المعلم غيره ... بل لاؤكد ان ما تشكون منه اليوم وانا واحد منكم شكوت منه مراراً ابتداء من عام ١٩٣١ حتى هذه السنة ، واحتفظت بذكريات وانطباعات عشتها في الجنوب وأكثرها في مرجعيون — وفي الابعاد .

عشتها مع الاقدمين ومع الحاضرين ، وكنت اردد وما زلت بعض أبيات من قصيدة ارسلها لي صديقي موسى الزين شراره ونشرتها في آب عام ١٩٣٣ « التاريخ هذا يكشف عمر الشاعر »

وآه للحق ما لـــه من نصيـــر
بين هـــذا الـــورى ولا من مجـير
نبذوه نبـــذ النـــواة ومالـــوا
عن سنـــاه إلى ظـــلام الشـــرور
ثم عدنـــا وما اهتدينـــا اليـــه
ليت شعري اباث ضمـــن القبـــور

* * *

فأين منا اليوم بمثل ما قام به طارق ويفهمنا :
يا عرب الدنيا ..
يا لبنان ...

البحر من ورائنا ، والعدو من امامنا لنتخط الاخطار بعيدين عن الغوغائية لنصل إلى الأندلس بل إلى التي يناضل العرب – كل العرب – للوصول اليها . إلى القدس ...

* * *

ايها السادة في عام ١٩٢٨ خرجت إلى المجتمع لارى فيه شواذا واعوجاجا وكذباً ونفاقاً ما اعتاد التلميذ ان يراها وهو على مقاعد الدرس ، فتألمت وقررت ان اعمل عملا ينقذ هذا المجتمع من فساده ومن فرنسا نفسها ومعها بريطانيا لزعمي اني أنا الوحيد الذي يستطيع ان يصلح ما افسد الدهر ، فأخذت أكتب في بعض الجرائد مقالات ادبية واجتماعية حتى وغرامية لاني كنت في سن يذوب شوقاً إلى بنات حواء وعلّمتُ سنة في قرية الحربة وسنة في بلدى مرجعيون .

ولكن هذا لم يكن يشبع طموحي ولم أكن على كل حال متشائماً فالكفاح ضد ما نشكو منه هو مبدأ لصالح ما نرجو ان نصل اليه من صلاح في المستقبل .

فقررت ان اشيــل الزير من البير بإصدار جريدة تفرج هموم الناس ، وتكافح للتخلص من الاستعمار والمستعمرين اجانب ومحليين ، ومن الظلــم والشواذات والظالمين اينما كانوا لاجعلها ميداناً للشباب الناشىء حيث كانوا ينشرون مقالاتهم وقصائدهم على صفحاتها بحرية لم تكن بعض الجرائد تنشره لهم ، ورسولا يشد الاواصر بين الوطن والمغتربين .

قصة جريدة

ذهبت إلى بيروت لمقابلة وزير الداخلية موسى نمور حاملاً استدعاء بطلب رخصة جريدة ، فقال يا بني ابحاجة لبنان إلى جرائد جديدة ... وكنــت في العشرين من عمري ، فقلت بكثير من غرور الشباب ... نعم اننا بحاجة إلى

جرائد وطنية ... فابتسم ووقع بالموافقة وعند مدير المطبوعات سألني عن اسم الجريدة فارتجلته دون سابق تصميم القلم الصريح .

واصدرتها بخمسة وعشرين ليرة لبنانية رأسمالها المادي من اشتراكات دفعت سلفاً وفي بلد تصدر فيهـــا جريدتان عريقتان في القدم « المرج » و « النهضة المرجعيونية » اصدرتها من حاجة الشعب وفقره ويأسي وبؤسه لتخدم بتواضع هذه الزاوية من الجمهورية اللبنانية الكائنة في قلب الامة العربية ، ولتخدم ابناء قومها في الوطن والمهجر فلم نترك ناحية من نواحي الحياة يمكن ان تمتد لها يد الخدمة الا وساهمت هذه الجريدة فيها ضمن نطاق جهدها ، وكانت لها مواقف عرضتها إلى الاخطار والاذى في الداخل والخارج ولم تتراجع عن خطة اخطتها لنفسها ورسالة آمنت بها .

وجعلت اشتراكها في مرجعيون وحاصبيا ٧٥ قرشاً سوريا وفي الجنوب وبقية انحاء لبنان ليرة سورية وفي المهجر دولاران ، وللنواب اللبنانيين لـيرة عثمانية ذهباً لم يدفع لي نائب من هذا الاشتراك الذهبي سوى النائب المرحوم يوسف الزين . — دعاني للغداء في بيته ونقدني عثمانيتين اشتراك سنتين . — ومضت عشرات السنين دون ان نقبض من أكثرية نواب الجنوب أي اشتراك .

* * *

اصدرتها جريدة عربية في وطن نصفه يقول انه عربي والنصف الآخر لا يقدر ان يثبت له سلالة غير العروبة والجميع يقولون انهم لبنانيون فلماذا لا نؤمن بان خير الامور الوسط .

وننفي الجدل العقيم على مذهب الريحاني القائل :

انا عربي لا تسلني لماذا ؟

بل لماذا لا نؤمن بان خير الامور الوسط كما قلت فلا نجعل من لبنان الواحد لبنانين بل نقول مع الشاعر فوزي المعلوف :

ان لم نكن كلنا في اصلنـــا عرباً

فنحن تحت لواهـــا كلنـــا عــرب

* * *

وارسلت اعداد جريدتي إلى مختلف انحاء المهاجر بشعار العروبة وتحـت لواها ، فرحب بها الكثيرون واعادها لي مغترب لبناني « مرتجعة مع الشكر .. روحة بلا رجعة ... انت عربي وأنا فرنساوي .. »

* * *

الخوري محمد والقسيس علي

ولم تكن هذه « الروحة بلا رجعة » غريبة علي من قوم إيمانهم بالعروبة غير إيماني فلنا في هذا جولات عندما جرى الاستفتاء عام ١٩١٩ حول الحكم الذي يطلبه المواطنون عربياً أو فرنسياً أو انكليزياً أو اميركياً . في بلدنا جديـدة مرجعيون عاصمة القضاء صوت ابناء الطائفتين الارتوذكسية والبروتستنتية وهم أكثرية ساحقة للحكم العربي والا بعده للاميركي فسُمّيَّ الخوري خليل هزار الخوري محمد والقسيس خليل الراسي القسيس علي ، ولما انتهى الحكم للفرنسيين زحفت وفود احدى القرى المجاورة إلى مرجعيون بمظاهرة كان القائمون عليها ينشدون :

يام التنـــورة الحمـرا . مكشكـــش مبروم

صار الحكم فرنساوي طقــــوا يا روم

* * *

الشهيد يوسف العظمة

وتعليقاً على ما يعرف الصديق الاستاذ أكرم زعيتر عن عروبتنا كتب لي في عام ١٩٥٦ رسالة جاء فيها : « اتصوره شيخاً جليلاً جاثماً في بذته الكهنوتية على ضريح يوسف العظمة يناجيه ، ويبارك تضحيته ، ثم يقوم على قبره ليصلي عليه

صلاة ويسلم تسليماً ... والاب الجليل الكاهن العربي الأصيل الخوري خليل هزار وكيف كان يلقن فتانا حفيده حب الوطن وتمجيد العروبة وتقديس الفداء».

وهذا الحفيد هو أنا يا سادة واعتز ان هذا الكاهن المذكور هو جدي لامي .

وعلى ذكر الشهيد يوسف العظمة كان رحمه الله في العشرينات يتردد على مرجعيون وينزل ضيفاً عزيزاً في بيت جدي الخوري خليل هزار وأتذكره في الصباح في لباسه العسكري الانيق واشراقة وجهه الانيس يختلي بجدي وأنا في التاسعة من عمري احوم حولهما .

وفي زيارة لقبر الشهيد مع جدي عام ١٩٣١ استعدت الذكريات واشبعت بالمبادىء التي حارب من اجلها هذا البطل فدعيت منذ ٤٥ سنة لاخطب على ضريحه باسم لبنان الجنوبي مرتين الاولى عام ١٩٣٤ والثانية عام ١٩٣٥ .

وفي خطاب ١٩٣٥ قلت : في عام ١٩٣١ وقفت بنا سيارة قادمة من مرجعيون بطريق بيروت فنزل منها جدي الشيخ وامسكني بيدي واتى إلى قبر هنا منفرد ثم جثا على ركبتيه وجثوت قربه وشرع بصلاة خاشعة رهيبة وكنت اتطلع اليه فرأيت قطرات من الدمع تنحدر على وجنتيه وحين انتهى سألته مذهولا ما بالك تبكي يا جدي قال وقد تلجلج الكلام في فيه هنا يرقد يوسف العظمة يا ولدي وزير المملكة العربية الذي مات في سبيل الواجب وآثر ان تمزقه قنابل (التنك) ورصاص المستعمر على أن يعود إلى المدينة حاملاً نبأ الهزيمة هو صديقي الاعز صديق المرجعيونيين خاصة والجنوب قاطبة الذي واساهم في نكبتهم اثناء الثورة العربية فكان لهم الاخ وكان لهم الاب البار .

يا بني ان هذا القبر الذي ترى سيكون ذات يوم كعبة تحج اليه قلوب العرب قبل اقدامهم .

* * *

ثورة الـ ٢٥

ولنعد إلى التاريخ — إلى ثورة عام ١٩٢٥ كيف بدأت وكيف انتهت في بلدنا وما كان دورنا فيها (دور جدي) كان لهذه الثورة تاريخها الوطني من جبل الدروز حتى حاصبيا وكان قادتها الزاحفون إلى منطقتنا زيد الاطرش وحمزه درويش وصياح الأطرش والظابط فؤاد سليم مخرج اركان حرب من المانيا .

بوصول هؤلاء القادة إلى حاصبيا اتصلوا بجدي الخوري خليل هزار وكتبوا له : « انهم في زحفهم لا يبغون غير البلدان الواقعة شرق الحاصباني .

ولكن الاستعمار وزبانيته أبوا الا أن يجروا هذه الثورة إلى مرجعيون فكانت البداية معركة كوكباً وبعدها جر الثوار بواسطة الظابط الدركي الياس المدور اذ ذهب مع رجاله إلى كوكبا لدفن القتلى والدفن كان اطلاق النار على الثوار والانسحاب امامهم ليبلغوا جديدة مرجعيون التي اخلاها الجيش ولم يدافع عنها .

وبقي الثوار في بلدنا ١٥ يوماً ارتكب بعضهم من الشواذات ما ساعد روبير دي كيه مندوب فرنسا لدى عصبة الامم على نقل صور ناطقة عن هذه الشواذات إلى عصبة الامم على انها لم تكن ثورة وطنية .

حكومة محلية

وفي غياب السلطات عقد مؤتمر في حاصبيا كان من أعضائه جدي الخوري خليل هزار حيث تألفت حكومة عسكرية برئاسة سامي بك شمس للمحافظة على الامن وممتلكات المواطنين من السرقات .

نهاية الثورة بمعركة راشيا الوادي

وبعد الخمسة عشر يوماً في بلدنا زحف الثوار إلى راشيا الوادي لاحتلال قلعتها وفي هذه المدة كانت القوات الفرنسية قد وصلت من فرنسا واتجهت نحو راشيا حيث جرت معركة ضارية كادت الحامية الموجودة في القلعة ان تستسلم لو لم ترسل احدى الطائرات رسالة سقطت خارج القلعة والتقطتها خورية راشيا وتسلقت السور بواسطة حبل وسلمت الرسالة إلى قائد الحامية مع أمر بعدم التسليم وهكذا كان ، ولولا الخمسة عشر يوماً في مرجعيون ربما كانت الثورة قد انتصرت ... ومن ذكريات الثورة بعد استعـــادة مرجعيــون من الثـوار دعا الكومندان جاكوب قائد الجيش الفرنسي في المنطقة لمساعدة السلطات في مكافحة الحرامية والمحافظة على الامن .

اول حكومة عربية في مرجعيون

كان لبلدنا جديدة مرجعيون تاريخ استمرت حوادثه وأحداثه حتى هذه الايام فالراية العربية ارتفعت عام ١٩١٨ على سراي مرجعيون وكانت أول راية عربية لاول حكومة عربية في سوريا ولبنان عندنا . والتفاصيل بالارقام وضعها ووصفها لنا مواطننا المرجعيوني المرحوم مراد غلمية أحد أعضاء المجلس التأسيسي في الدولة العربية الذي نادى بالامير فيصل ملكاً على سوريا .

ففي شهر أيلول عام ١٩١٨ احتل الانكليز منطقة جسر بنات يعقوب ، ولدى وصول الجيش إلى المطلـــة وكان فيهـا يوم ذاك رشيد الخطيب مأمور التحصيل توجه هذا المأمور إلى مرجعيون وأبلغ القائم مقام مصطفى نشأت عن وصول الجيش الانكليزي إلى المطلة فذعر القائم مقام وهرب مع الطوابير الثلاثة بكامل معداتها إلى البقاع وأخذ الاهالي من البلد والجوار ينهبون ما في مستودعات الجيش العثماني من شعير وقمح ومواد غذائية ، وخوفاً من ان تمتد السرقات

إلى بيوت المواطنين دعا مراد غلمية أعيان البلاد وذوي الكلمة المسموعة لاجتماع في دار البلدية حيث تألفت حكومة موقتة من ١٢ عضوا وتم تعيين ٥٠ دركياً و ٥٠ شرطياً امروا بتفريق الجموع والمحافظة على الامن .

أثناء هذه الحوادث كان سمو الامير فيصل قائد جيش الشمال قد وصل بجيشه إلى عجلون فاستقبله الأمير محمود الفاعور زعيم الجولان على رأس مئتي فارس وسار بركاب سموه إلى درعا من حيث ارسل أحد رجال حاشيته السيد ايليا الخوري مع أمر يعلن فيه الاستقلال العربي ، ومع الرسول الراية العربية لترفع فوق دور الحكومة التي تتألف في كل بلد .

وصل رسول فيصل إلى الطيبة مقر الزعيم العاملي كامل بك الاسعد ، وفي اليوم التالي جاء الرسول السيد ايليا الخوري والسيدان محمود بك وعبد اللطيف بك الاسعد إلى جديدة مرجعيون مركز القائم مقامية ومعهما مئتا فارس ، فاستقبلهم الاهالي بحماس وتبلغوا مرسوم الأمير فيصل وتسلموا أيضاً الراية ورفعوها على دار الحكومة ، وكانت هذه الراية أول راية عربية ارتفعت على دار حكومة عربية في سوريا ولبنان وفلسطين وبقيت مرتفعة عندنا شهرين من منتصف شهر ايلول عام ١٩١٨ حتى منتصف شهر تشرين الثاني من العام نفسه .

ابلاغ بيروت مرسوم الامير وحكومة الصلح في صيدا

وبعد ذلك ابلغت مرجعيون المرسوم الاميري برقياً إلى بيروت فتبلغه يوم ذاك سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم ورفاقهما – رحمهم الله – ووصفت لهم شكل الراية فصنعوها ورفعوها على دار الحكومة .

وبعد أربعة أيام من هذا الحدث السعيد جاء إلى جديدة مرجعيون من الشام شكري الايوبي ، حيث علم اننا في مرجعيون سبقناهم إلى شرف رفع الراية

العربية ، ثم توجه إلى صيدا حيث تألفت الحكومة العربية برئاسة رياض الصلح ـ رحمه الله ـ وأخيراً زحفت الجيوش الانكليزية والفرنسية من عكا إلى صور وصيدا وبيروت والغت هذه الحكومة .

اما حكومة مرجعيون فقد امتد بها الاجل شهرين كما قلت أي بعد الهدنة العالمية اذ حضر إلى بلدنا حاكم صيدا الفرنسي مع مئتي جندي والغى الحكومة وأنزل الراية عن دارها .

* * *

مغتربونا

ولم يكن هذا الذي احدثكم عنه مقتصراً على اهلنا الباقين في لبنان ، فهنالك من اصلابنا مغتربون قال فيهم الشاعر حافظ إبراهيم :

ما عابهم انهـم في الارض قـد نثروا
فالشهب منثورة مـذ كانت الشهـب

هؤلاء الذين عصفت في صدورهم رياح الطموح فهاجروا وخلفوا مرابعهم وفيها كل قريب واليف .

تطلعوا إلى الاجواء باتساعها فلم يرهبوا بحرا متلاطم الاجواء ولم يرعبهم جو شاهق المجال . تجملوا بالصبر على الفراق ، وادرعوا بالجد والعزم لينالوا من دهرهم ما يتناسب مع طموحهم ، فنالوا من هذا الدهر لهم ولبلادهم ما سعوا اليه فكان منهم وبالتخصيص من بلدنا جديدة مرجعيون نماذج لمختلف الحقول .

كان منهم الدكتور رزق حداد الذي تولى الدفاع عن العنصر السوري أي العربي وتمكن من اقناع الاميركيين باننا من أصل سام ولسنا من الشعب الاصفر .

والدكتور مخائيل شديد صاحب أول فكرة تعاونية طبية في العالم.
والدكتور مايك دبغي أعظم طبيب للقلب في العالم.

* * *

وكان منا الجنرال ارنست مسعد محرر الفليبيين من الاحتلال في الحرب العالمية الثانية والاميرال ريتشرد نايفة الذي خاض احدى معارك الباسفيك واستشهد.

والوف العساكر من مختلف الرتب وقد تطوعوا وانضموا إلى جيوش الحلفاء لمحاربة الظلم والظالمين والاستعمار والمستعمرين إلى حد ما قالوا واذاعوا في الحرب الأخيرة.

وكان منا الاستاذ البرت فضلوا الحوراني احد اساتذة اكسفورد البارزين ومن من رجالات العرب لا يعرف هذا الاستاذ ومؤلفاته عن العرب والشرق ونشاطه في المكاتب العربية لخدمة قضية فلسطين في اوروبا واميركا – من منهم ينسى شهادته الخطيرة التي ادلى بها أمام لجنة التحقيق البريطانية بخصوص قضية فلسطين – تلك الشهادة التي قال فيها رئيس اللجنة: «ان بلفور نفسه لو سمعها يوم ذاك لما أصدر وعده المشؤوم» ... وكان منا والده رجل الاحسان....

وكان منا النائب ابو كسم عن كاليفورنيا وقد هزم نيكسون وزارنا في بلدنا ولبنان واحتفلت البلاد والسلطات به.

وكان منا من منطقتنا من الكفير الشيخان أبو رزق وأبو رحال.

وكان منا في الولايات المتحدة والبرازيل رجال علم واعمال ونواب ولايات ورؤساء بلديات واساتذة في الجامعات.

وكان منا من البلدان المجاورة فارس الخوري وفايز الخوري وحبيب أبو شهلا وفارس نمر باشا وشاهين ماكاريوس وفارس الدبغي والشاعر العالمي جميل حداد .

* * *

ويفتخر مواطنونا انهم عرب عراب وقدوة في المحبة والاخلاص والتضحية والوفاء . فكانوا بكل تواضع يتبرعون شهرياً للقضية الفلسطينية ويساهمون في مختلف الاعمال الخيرية العائدة للبنان وبلاد العرب وقد بلغ حماسهم لهذا الوفاء الرفيع ان الخوري جريس غلمية كاهن وتشتاكلنس الارثوذكسية أقام في عام ١٩٣٦ قداساً حافلاً على نية فلسطين العربية ومفتيها الأكبر الحج أمين الحسيني .

* * *

واذاعت الجامعة العربية في نيويورك تفاصيل بعث بها اليها السيد صلاح الدين الايوبي عن حفلة كبرى اقامتها جالية ميشيغن للوفد العربي الفلسطيني تعبيراً عما يكنه العرب لسماحة المفتي الأكبر وان السيدة اديل نجيب أبو سمرا انزلت اسواراً لها اشترته من دمشق يوم كانت في سوريا بالمزاد العلني فبيع بمبلغ باهظ لمصلحة القضية وقامت الجالية بتقديم الاسوار إلى الاستاذ بيهم ليتفضل ويقدمه هدية الوفاء لزوجة سماحة المفتي الاكبر .

* * *

٨ ايلول ١٩٣٧ مؤتمر بلودان

لم تشهد العروبة منذ عشرين سنة مؤتمراً عربياً كمؤتمر بلودان الذي جمع صفوة رجالات العرب من مختلف الاقطار والانصار فضربت سوريا الرقم القياسي في الجرأة والاقدام رغم طراوة عودها كما قال رياض الصلح في حينه اذ فتحت أبوابها للمؤتمرين من كل من نطق بالضاد للاجتماع تحت راية الوحدة العربية الشاملة الحلم المنشود ويقررون أساليب الدفاع عن فلسطين .

وكان وفد جبل عامل مؤلفاً من السادة الشيخ احمد عارف الزين والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان الظاهر وعلي بزي وموسى الزين شراره والفريد أبو سمرا .

وكانت لجنة الدفاع عن فلسطين التي يرأسها نبيه بك العظمة هي الداعية لهذا المؤتمر ومنها تسلمنا بطاقة عضوية المؤتمر ومن فخري بك البارودي رئيس اللجنة الثانية تسلمنا بطاقة الفندق الذي أعد لمنامة الصحفيين لم يشعر احد انه غريب عن الثاني فالكل عائلة واحدة وفكر واحد وللكل هدف واحد وقد جمعتهم مصيبة العرب في فلسطين تحت سماء واحدة ، فكان الاعضاء الذين شكلوا المؤتمر عبارة عن برلمان الامبراطورية العربية .

* * *

افتتح المؤتمر باسم الله والعرب نبيه بك العظمة وقرأ الاستاذ فؤاد مفرج السكرتير العام اسماء الاعضاء وكلمة اللجنة وتألفت هيئة المكتب من الرئيس ناجي باشا السويدي وكان مقرراً ان يرأس البطريرك الارثوذكسي هذا المؤتمر فاعتذر لظروف كثيرة . وكان نواب الرئيس محمد علوبة باشا والمطران حريكي مندوب البطريرك الارثوذكسي والأمير شكيب ارسلان والمراقب رياض بك الصلح والسكرتير عزت بك دروزه والمساعدان صبري بك العسلي وفؤاد مفرج فصادق المؤتمر على هذه التسمية .

* * *

– تكلم باشا العراق فقال : لتفهم بريطانيا ان العرب لم يعودوا حلفاءها وانهم معها على مفترق الطرق .

– وتكلم محمد علوبة باشا فقال : ان مصر اولى الامم العربية للدفاع عن فلسطين ونحن لا نطيق دولة يهودية على حدودنا لانها خطر على مصر .

– وقال المطران حريكة : الاكليروس اولى الناس بالدفاع عن مهد المسيح.

– وقال رياض بك الصلح : اذا كانت كلمات الاقطار تقاس بالمساحات فاؤكد لكم ان كلمة لبنان لن تكون طويلة ، ثم قال : ان لبنان قطعة من الوطن العربي الكبير وان ابناءه دافعوا عن فلسطين .

– واقترح الامير شكيب ارسلان توجيه نداء إلى رؤساء المسيحية لحضهم على الدفاع عن فلسطين .

– وناشد البارودي الامة العربية الخروج من الكلام إلى العمل الجدي .

– وقرأ صبري بك العسلي قرارات المؤتمر وهي :

١ – فلسطين جزء من الاقطار العربية

٢ – رفض ومقاومة تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية .

٣ – الغاء الانتدابات ووعد بلفور وابدالها بمعاهدة مع بريطانيا تكفل للشعب العربي في فلسطين استقلاله .

٤ – وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين واصدار تشريع يمنع انتقال الاراضي من العرب إلى اليهود وإبلاغ هذه القرارات إلى جمعية الامم .

* * *

وعلى ذكر المرحوم نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين كان لنا شرف الانتساب إلى هذه اللجنة في منطقتنا وكان يأتي الينا من صيدا صديقي المرحوم الاستاذ معروف سعد فنتعاون على ما يخدم القضية الفلسطينية من حدودنا

مؤتمر وحدة سوريا في صيدا

وفي صيدا عقد مؤتمر الوحدة السورية برئاسة السيد عبد الحميد كرامي – رحمه الله – وكان الامينان لهذا المؤتمر الشيخ أحمد عارف الزين والفريد أبو سمرا ومن أبرز وأبشع ما زلت اذكر عن احد خطباء هذا المؤتمر وحماسه

ودعوته للجهاد في سبيل الوحدة ، أنه وفي غمرة انشغال المؤتمرين بالاصغاء إلى بقية الخطباء انسحب خطيب الوحدة والجهاد هذا وتوجه لعند الكومندان بتشكوف وقدم له تقريراً شفهياً عما حصل في هذا المؤتمر .

لورنس في مرجعيون

وقبل أن نعود إلى الذكريات المحلية لن أمر بحادثة زيارة لورنس ملك العرب غير المتوج لبلدنا جديدة مرجعيون وقد لا تخطر ببالكم أن لورنس زار مرجعيون في أوائل تموز سنة ١٩٣٤ وكرر الزيارة في أيلول . إن السيد جريس عياش النجار اليوم كان قد حارب مع الانكليز في الثورة العربية قال لي وهو يحز الاخشاب بمنشاره : « كان لي صديق قديم حاربت معه في العقبة وهو قائد ماهر فقلنا ومن يكون هذا الصديق ؟ قال الكولونيل لورنس وتابع : في أوائل تموز صادفت بدوياً واقفاً على رصيف دكان جميل ماضي في البلدة حوالي الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر فلفت نظري شكله وأخيراً عرفته وحييته ورد التحية واكتفينا بالتحيات والسلامات وانصرفنا .

وفي ايلول على أثر وفاة الملك فيصل الاول جاء إلى بلدنا جديدة مرجعيون بدوي فزارنا في بيتنا مدعياً انه من شيوخ حوران المنكوبين وفي غرفة الاستقبال جلس وأخذ سبحته يلعب بها ووضع عصاه الخيزران على احدى ركبتيه وأخذ يتأمل ويفكر كثيراً :

– ماذا ترغب يا شيخ ؟

– سلامتكم فانا اسمع بالرجل العربي المشهور صاحب الكرم والجود الحوري خليل هزار الذي كان جالساً يستمع إلى احاديثنا .

– اهلاً وسهلاً ، ولكن ماذا ترغب يا شيخ ؟

– اف .. اف .. لقد بذرت ستمائة مد حنطة في حوران فأمحلت الارض

من قلة المطر وبت لا أملك شروى نقير .

ـ الاسم الكريم يا شيخ ؟

ـ مخدومك الشيخ ديب . وقد واصل حديثه فقال :

ـ لم تكفنا الضرائب الطبيعية بل زاد في الطين بلة الحاق الحكومة لنـــا بالضرائب .

ـ تفضل اشرب القهوة .

فشربها وتابع القول : الله من الزمان كيف كنا وكيف أصبحنا .

ـ ماذا تعني ؟

ـ يا سيادة المحترم من يقرض الفقير قال الرب عساك تساعد بما استعين به على جولتي في صيدا لجمع الحسنات .

ـ خذ هذا الميسور ، فأخذه وودع وانصرف بينما عيناه الزرقـاوان تريدان البوح بسر والظروف لم تساعد على ذلك .

* * *

ومضت الايام ولم نعد نعلم شيئاً عن الشيخ ديب ، ويشاء القدر ان أكون في سجن صيدا حيث كان فيه معنا بضعة مسجونين حوارنة ، ففي اليوم السابع لوجودي في السجن في كانون الثاني سنة ١٩٣٤ فوجئت بالشيخ ديب يتجول في ساحة سرايا صيدا وبمعيته بدوي أسمر اللون مربوع القامة بدين أفطس الانف تقدم الشيخ ديب (لورانس) من باب السجن وقال بلهجة البدو : مرحباً يا شباب هل عندكم حوارنة في السجن؟ فأجيب: وماذا تريد منهم ؟ ابغي مقابلتهم .

السجان : دونك المدعي العام خذ الاجازة منه للمقابلة فأخذها وقد أصبح اسمه في صيدا مشهور باشا ، وجاء لمقابلة احد الحوارنة المحكوم بدعوة مالية .

لورنس ـ من أي بلد انت يا ولد

ـ من طفس

– ويش ذنبك

– دين يا سيدي

– زين أنا اخلصك انشاء الله بالقريب ونقده بعض المال .

وهنا جاء دوري فناديت الشيخ ديب لورنس – وسألته : هل تعرفني يا شيخ فهز رأسه متناسياً .

– الم تزرني في مرجعيون ؟ فصمت وانصرف مغضباً .

* * *

توكيل فيصل

وفي عام ١٩٣٣ قام فريق كبير من الشباب المثقف بتوقيع عريضة رفعوها إلى جلالة الملك فيصل ملك العراق بمناسبة رحلته إلى اوروبا وسلمت إلى جلالته في عمان .

وكان الرئيس فارس الخوري قد أرسل لي عريضة لتوقيعها من بلدنا وبعض بلدان المنطقة فقمت بذلك سراً وفي الليل كانت العريضة تنام تحت فراش سريري ويبدو ان احد موقعيها كان من العملاء وفوجئت بالامن العام يدخل منزلي ليلاً ويلقي القبض على العريضة .

والعريضة تعلن بعد التحية والاحترام حل قضايانا مع فرنسا .

وعندما مات فيصل نعاه شباب مرجعيون واقاموا له حفل تأبين بحضور الالوف وقد قلت في خطابي التأبيني يوم ذاك « ظنوا في موتك موت العرب ولكنهم خسئوا في مزاعمهم فحبة القمح التي تدفن في الثرى تنتج الف حبة ، وكل ذرة من ذرات جسمك التي ضمها الثرى ستخلف للعرب الف فيصل .

* * *

اثنان من الوجهاء ذهبا لزيارة ضابط الاستخبارات الفرنسي ليسألاه اذا كان يسمح لاقامة الحفلة لفيصل فكان جوابه ما شأننا نحن في اقامة الصلاة وحفل تأبين لملك عربي مسلم ، في حين حصل عند توقيفي في ثكنة درك صيدا أن استدعاني ظابط الدرك الياس مدور إلى مكتبه وبعد أن طلب مني المستحيل ارسلني مع بقية رفاقي من أبناء الجنوب المعتقلين إلى المحاكم المختلطة في بيروت وبوصولنا إلى السراي الكبير استدعاني المدعي العام مسيو فورنييه ولما سألني هذا القاضي وأنا مكبل عن مهنتي وقلت صحافي ، فانتفض وأخذ يشتم الدرك وأمر بفك القيد من يدي وتركني حراً .

وفي الليل عدت إلى بيتي وكان خبر اطلاق سراحي قد انتشر فأمر الياس المدور باعتقالي على مسؤوليته ومسؤولية بتشكوف وساقوني مع غيري إلى سجن الرمل في بيروت حيث بقيت فيه شهراً ولما حصلت المراجعة لاطلاقنا قال المفوض السامي : نی أبو جمرا نی أبو سمرا ...

ni aboujamra ni abousamra

* * *

انتفاضة الجنوب

واثناء بداية عهدي في الصحافة ، وفي العام ١٩٣٥ بالضبط نذكر كيف اقسى عبد اللطيف بك الاسعد عن مركز النيابة في عهد بتشكوف وفرض هذا المقعد لسواه ممن هو اقل منه شعبية فحصلت انتفاضة في الجنوب ضد الظلم والظالمين حتى عندما مات هذا الزعيم عقيب الاعتداء على حقه في تمثيل الشعب الذي يؤيده كان يوم مأتمه بمثابة مؤتمر وطني لاهل الجنوب على اختلاف نزعاتهم بل بمثابة شرارة اشعلت العديد من بلدان الجنوب وفي مقدمتها بنت جبيل حيث سقط فيها قتلى وجرحى من أجل حقوق لهم ارادت السلطات في حينه اضاعتها وعدم الاعتراف بها فاجتمع الشمل ووحدت المصائب الكلمة .

ولم تكن ردة الفعل الغاضبة على أهل الجنوب وحدهم بسبب تلك المظالم بل تعدت تلك الردة يوم وفاة الاسعد حتى بلغت الاوج من العنف وتعدت تلك الردة حدود لبنان فبلغت الاقطار العربية وبصورة خاصة سوريا ، وكان من أبرز الوفود التي جاءت إلى الطيبة للتعزية وفد سوريا برئاسة الزعيم الوطني الكبير نائب دمشق فخري بك البارودي ومنير بك العجلاني الذي كتب عن هذه الزيارة فصلاً مطولاً في كتابه « أوراق » وقد جاء في كتاب أوراق لمحة بليغة عن زيارته والبارودي لمرجعيون عام ١٩٣٦ يمكن استخراج عبرة وطنية منها وعما كنا بالامس وكيف سرنا اليوم قال العجلاني الذي صار وزيراً فيما بعد بعنوان :

« الوحدة الوطنية — الوطن يبقى وكل خيانة تزول » .

« في محافظة لبنانية ، وفي بلدة مسيحية ، وفي دار خوري زغردت امرأة في مأتم وكان شهودها من دمشق فخري البارودي وأنا » وتابع العجلاني :

« أنقدنا في مرجعيون كالاسرى إلى بيت السيد الفريد أبو سمرا حيث احتشد فيه جمهور غفير من وجوه البلد وشبابها المثقف واستقبلتنا في الدار امرأة في ثوب الحداد والدة الفريد وكان حولها فتيات وشباب من عمر ولدها في ثوب الحداد فاستغربنا ان ندعى إلى حفلة في بيت ميت ، وخفنا ان نثقل عليهم ويكون التظاهر من أجلنا يؤذيهم في عواطفهم ولكن صاحبة البيت أم نجيب قالت ان والدي مات وكان يتحدث حتى ساعاته الاخيرة عن الوطن وعن سوريا فما أسعده بدخولكم اليوم إلى منزله فلا معنى للحزن ولنأخذ قسطنا من الفرح » . وتابع العجلاني :

« وتقدمت منا سيدة تحمل طفلاً لم يعمد بعد فأخذ البارودي يداعبه ثم وضع يده على شفتيه وقال اعمدك باسم الوطن فابتسم الطفل وكادت امه ان تبكي من سرورها وأنشأ الشباب ينشد من حولنا :

هذا الوطـــن حـــق لـــه ان يفتدي بالدمـــاء والمهج . »

وتابع العجلاني « نحن في محافظة لبنانية نحن في بلدة مسيحية نحن في دار

خوري والاولاد على كثب من ضريح ابيهم الرطب يقولون انهم سعداء لاننا حملنا اليهم رسالة الوطن المجاهد لحريته ووحدته فبلاد تنبت مثل هذا الشعور كيف تبلى » ؟

وتابع : « ان المأجورين والخائنين والعملاء يموتون وتلعن الاعصر ذكرهم ولكن الوطن يبقى وتضع الاجيال الصاعدة اكليلا من الزهر على قبر الخوري هازار لان قلب الوطن كان يخفق في داره . »

والطريف انه في اليوم التالي وصلت صورة الحفلة إلى بتشكوف فما كان منه إلا أن شطب اسم من كان معداً لرئاسة البلدية لأنه كان في استقبال البارودي وحضر الحفلة .

* * *

أيها السادة ...

قالوا اتعشقــه وهـذي حالــه | يا حبـذا وطني على حالاتـه
العيش حلــو في سبيــل رقيه | والموت احلى في سبيــل حياته

هذا الوطن له في تاريخ عملي الصحفي ذكريات في الكفاح وان افتتاحياتي لتعطي صورة شاملة عن هذه الذكريات وحسبي هنا ان اشير إلى تشرين لبنان عام ١٩٤٣ وأيار سوريا عام ١٩٤٥ بالقول :

أيها المجرمون ان دمشق وبيروت لن تركعا فزمن الاستعباد قد مضى وفات.

هذا دمـي ان تنادوني وذا قلمـي | كلاهمــا عربي الاصل لبناني

في شهر حزيران من كل عام نذكر شهداء الجنوب ، ونفرح لانتصارات وطننا ولكننا لن نرقص على قبورهم ولن نسكت عن المطالبة بدمائهم .

* * *

من أجل الحفاظ على الحدود يفرض ان تبقى حصون مرجعيون التي اسماها الجنرال دانز حصون الياج قوية لترد الاخطار عن البلدين وبالنتيجة عن الامة العربية لان خط الدفاع المرجعيوني المعروف بالخط الالماني في الحرب العالمية الاولى وبخط ايدن في الحرب العالمية الثانية له قيمته .

* * *

وعلى ذكر الحدود ففي عام ١٩٦٠ واثناء عشاء في بيتي في مرجعيون خطب كاظم الصلـح رحمه الله فقال : « اخشى ما اخشاه ان يحصل فراغ في هذه المنطقة يسده العدو » وكان خطابه بمثابة نبوءة لما حصل في الجنوب وبصورة خاصة في منطقتنا في عام ١٩٧٨ .

* * *

لقد حاربنا الانتداب لنتحرر وسنحارب الانتداب الداخلي لنحرر الناس من طغيان الاقطاعية واذا خسرنا معركة الانتخابات فلن نخسر معركة الحريات .

* * *

قال لي بتشكوف : سأعطل جريدتك إلى الابد فقلت انك قادر ... فقال أنا قادر فقلت : ولكنك لست قادراً على انتزاع ما اشبع به عقلي من مبادىء الثورة الفرنسية ، وبالاخير افرج المرحوم ميشال زكور وزير الداخلية عن القلم الصريح بعد تعطيل دام سنة ونصف السنة .

* * *

وبعد اعتقالي اثناء الحرب العالمية الثانية في المية ومية والافراج عني طلب المندوب البريطاني في الجنوب فدلر من القائم مقام فريد حبيب ان ازوره في صيدا لانه يريد ان يتعرف عليّ ولهذه الزيارة قصة سأرويها لكم شفاهاً .

* * *

أيها السادة اطلت عليكم الشرح أكثر مما شكى منه جبران ورغم ما في جعبتي من غرائب الاخبار ما يستوعبها مجلد أو مجلدان ، فنحن سكان الجنوب وأهله في هذا المختبر بشتى أنواع المناورات ومختلف الاسلحة حيث حصل فيه الخراب والدمار من الاسفل حتى القمة ، نود ان نشعر اليوم اننا في جو الطريق إلى قيام الدولة القوية بالجيش القوي لحماية حمانا ، وان لبنان في الطريق إلى استعادة مركزه في العالم فيبقى بوابة الشرق العربي ويتحرر من سياسة لا حرب ولا سلم ، وهي حالة عسيرة واقعها ماثل – لبنان يدفع الثمن وجنوبنا يدفع الثمن الأكبر فدية عن كل العرب . يدفع الخراج ويأكل الكرباج . انها لعمر الحق مأساة حقيقية وما كانت حوادث وحدثان الزمان لتغير فيها وقد بريت الاقلام والمخلصون يكتبون ويحذرون والعدو يستهين بنا ويحاول ان ينال من كرامتنا وكرامة مختلف ديار العرب ونحن في شغل شاغل عنها ، فتعالوا يا عرب نلبس كلنا بذة العسكري ونحمل السلاح ونذهب إلى الجبهات المهددة للدفاع عنها ومتى استشعرنا الخطر وعرفنا ان القصور والدور لا تحمى بل الجيش وحده يحمي عندئذ ننكر ذواتنا ونسترخص أموالنا ، وندرك كم هم العرب بحاجة إلى وحدة ، بل إلى جيش عربي قوي يعيد لهذه الامة ما كان لها من امجاد .

لقد كان للعرب هذا المجد
مجد السيف الماضي الحد
والرمح الاسمر الطويل القد
والطعنة البكر التي لا ترد

* * *

تشهد بغداد بلد الامجاد
تشهد دمشق البلد الطيب الامين
دمشق صلاح الدين

* * *

وتشهد غرناطة
وآه لغرناطة ما مثلها تحت السماء
والاندلس الغناء الجنة الزهراء

* * *

يشهد طارق سيد البطولة والرماح الدقاق الطويلة والسيوف المصقولة

وكم في ايامهم من مجد

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

تلك أنوار شعت وقتاً طويلاً ثم خبت كأن زيت سراجها قد جف .

عواصم العرب نامت هادئة نوماً عميقاً تحدوها ذكريات عظيمة ولم تزل تحلم بصور السيوف والجيوش والشعراء وأكاليل الغار .

ورب غفلة يعقبها يقظة تعيد الينا ما فات وضاع انشاءالله .

مِن ذِكرَيات

الصُحفي سُليمان أبو زَيد



مليـــخ ـ قضـــاء جـــزين

الجنوب بين القهر والغضب

الاستاذ سليمان ابو زيد

أرى من واجبي الوطني ، أن أبدأ هذه الذكريات ، من حيث أوشكت ان تنتهي ، أي بالقصيدة التي نظمتها مؤخراً عن الحالة التي يتردى فيها جنوبنا الحبيب ، وقد نشرتها مجلة « الجمهور » منذ أيام تحت عنوان : « جنوبنا الحبيب »

غرق الجنوب بنـــاره وخرابهِ — فمتى نهاية قهـــره وعذابـه ؟
الشر حاصره ودمـرّ أرضـــه — والضيم وحش يسبطرّ ببابـه
قد اصبح الصاروخ ديك صباحه — وقذيفة الترويع صنجَ غيابـهِ
وغدا الرصاص صلاته وأذانـه — وتصايُحَ الناقوس في محرابـه
الرعب ملء عيونـــه وعيونـه — والنار غيث سهوله وهضابـه

يا أمةَ الانسان اين شريعــــة — الانسان تحمي روضَه من غابه؟
أهل الجنوب فريسة مذبوحـــة — بمخالب العدوان ، نهش ذئابه
والذعر طي ضلوعهم ودموعهم — سيلٌ ، يدا صهيون في تسكابه
هي جارهم — وحش الحضارةُ — فاغر — فمَهُ ، ورعب الغدر في انيابه
قذفت به امم « التمدن » نحونـا — والسيف في يده بديل « كتابه »
والمكر والتدجيل خيرُ خطابـــه — والقصف والتنكيل ، شرُّ جوابه
غصب الاراضي والمساكن وادعى — ان المرابع من تراث « جنابه » !

ان كان «وعد الله» حقاً خصّهم — بسمائه ، وبمائه ، وترابـــهِ
فلِمَ القتال لأخذهِ مستشهــداً — وتعمُّدُ التقتيل في أصحابـه ؟

وكذا فلسطين انتهت وتمزقت   في قبضة الغازي على قرضابه
وسطا على العَرَبِ الضيّاعُ لأنهم   ألكلٌّ يحمل سيفه لحسابه ! !
هذا « أخوهم » موطن الارز الذي   وصفوهُ يوماً « بالعظيم النابه »
واليوم لبنان ضحيّةُ خُلفِهم   وغداً ترى للخلفِ يومَ حسابه
وله عقاب مرعب ما ذاقه   لبنان حتى في رهيب مصابه
سكتوا على ذبح «الشقيق» لكونهم   ذبحوا الحجى ، في لغوه وصوابه
عرب التحاسد والتباعد سيّبوا   لبنان من ظمأ ، يغصّ بصابه
بلدي الجنوب ، فديته بحشاشتي   ولمتُ بالاجفان تُرْبَ رحابه
هو روضة في جنة الوطن الذي   صلبوهُ واقتسموا سليب ثيابه
يا « مربد » الشعر الرفيع ، ومهده   وعجيجَ عبقرهِ ، وزهوَ شبابه
«أيوبُ» ما قاسى نظيرك محنةً   في جسمه ، في روحه ، ولبابه
قد حطّه قَدَرٌ ، باخطر موقع ،   ما بين نارِ عُداته وصحابه
والناس من كل الجهات تعهدوا   بخرابه ، وجميعهم ، غدروا به

بلدي ، حبيبي هل أراك تعود لي   حقاً يفيء إلى كريم نصابه ؟
وتغيب شمسي في عيونك فرحةً   قلبي يشمُّ أريجها — بترابه ؟ !

والآن ، اسمحوا لي بان احدثكم قليلاً عن بلدتي ونشأتي :

حسب قول الوالدين ، أنا من مواليد مليخ ، الساعة التاسعة ، من صباح التاسع من شهر نوار عام ١٩٠٩ . ومليخ اصبحت اليوم احدى امهات القرى في الجنوب على حدود جبل عامل الشمالية الشرقية . مناخها صخري طيب . أهلها يعمرون فوق المئة ، مع الاحتفاظ بصحة العقل والجسم غالباً ، كما هي والدة سليمان أبو زيد حتى الساعة وهي في المئة والسنوات الخمس من عمرها .

مليخ تسكنها الطائفتان ، الشيعية والمارونية مناصفةً . وقد عرف أهلها بالوعي والالفة والمحبة . فكانوا خلال المعارك الطائفية الاخيرة ، والقتل« على الهوية » يعيشون بوفاق وسلام، ويتزوّج بعضهم من بعض ، ويقيمون الاعراس المشتركة شأنهم في أعوام ١٨٦٠ المشؤومة ، و ١٩٢٠ و ١٩٥٨ و ١٩٧٥ . مليخ بلدة أثرية أيضاً وتقع بين أربعة جبال هي : عريض الزنّار ، أبو الركب ، صافي ، سُجد . والجبال الثلاثة الاخيرة ، عليها مزارات دينية معروفة باسمها . أما اسم مليخ باللغة الآرامية ، فيعني « مجمع الكؤوس » كما جاء في كتاب « دليل لبنان » لابراهيم بك الاسود . ولعل التسمية آتية من تشبيه هذه الجبال بالكؤوس وفي قول آخر ان الاسم كان (اور مليخ) أي مدينة الملك . ولعلها كانت مدينة بدليل الآثار الباقية فيها حتى الآن ، وهي النواويس المحفورة بالصخور في محلة « تنس » وداخل البلدة أيضاً ، والعثور على جرة « تبر » في محلة الحبس من منطقة « تنس » منذ تسعين سنة .

في هذه القرية الجنوبية الجبلية ، ولد سليمان أبو زيد ، وكبر وتعلم في مدارسها الابتدائية المعروفة بمدارس « تحت السنديانة » .

ذكريات الطفولة

عام ١٩١٤ غزا الجراد الطيار أرض لبنان ، مواكباً ويلات الحرب العالمية الاولى . ثم جاء الجراد الزحاف ملتهماً ما ابقاه الطيار من زرع وشجر . وبلغ من كثافة زحْفه ، انه كان في تراكمه ، يبدو كالعشب المتحرك . وكنا نخوض فيه كأننا ندعس في الوحل اللزج .

ام سليمان ذهبت إلى مرجعيون ، فباعت مصاغها بالبلاش ، لكي تجلب لنا ــ أنا وأخي الاصغر ــ نصف مدّ قمح ونصف مد من الشعير وتنقذ حياتنا من الموت جوعاً . وفي غيابها حففنا « جلد العجين » المعروف « بالميزر » وسففنا ما

م ٨

تناثر منه من طحين . وأكلنا « الباقيه » فدخنا ونمنا . وكان الوالد مهاجراً في أميركا ، وقد انقطع عنا بسبب انسداد البحر بالحصار .

وعادت الوالدة تروي لنا وهي تولول ، انها شاهدت على جسر الخردلي ، امرأة ميتة ، وطفلها مائت على ثديها الخالي من الحليب .

وجهاد الوالدة على تلك الصورة ، اهلّها لان تنتخب « امّاً مثالية » لمنطقة جزين أوائل عام ١٩٧٥ باحتفال رسمي في قاعة الاونسكو ، قلدت فيه وسام « لجنة الامهات » ووسام « المجلس النسائي العالمي » .

ذكريات مدرسية

ارسلت إلى مدرسة المعلم « عزيز » في الضيعة . فوجدته يمسك باذن تلميذ اسمه « عطا » ويشده صعوداً ونزولاً ، فهربت ولم أعد إلى مدرسته . ثم جاء « ابونا جبرايل » فحفظت « الالفباء » عنده في يوم واحد . وأخذني التلاميذ الكبار إلى البيت ، بزفّه ، وهم يقولون لوالدتي :

ابنك هالصبي الشاطر صار بيقرا عالخاطر
يلاّ هاتي الحلوينه بونا جبرايل ناطر

فلقطت الديك « المزهّر » — وهو ديكي العزيز — وأعطتهم إياه . فحزنت وبكيت وخسرت فرحة الفوز بحفظ الالفباء .

الحب الاول

ومن مدرسة بونا جبرايل ، إلى مدرسة الياس شاكر قسطنطين ، الشاعر الشعبي الضرير المشهور ، إلى مدرسة بولس لطيف الذي جاء من عماطور .

وفي مدرسته حدثت لي الحادثة الاولى الطريفة التالية : أقام المعلم حفلة مدرسية دعا إليها أهالي التلاميذ للاستماع إلى القاء محفوظات اولادهم . وقد تلعثمت في القاء قطعتي الفرنسية ونسيت بعضها . فجلست حزيناً مخجولا ، لانني كنت معروفاً بانني أول الصف . ولما جاء دور القاء القطعة العربية ، شعرت بانه جاء دور الموهبة الخطابية المبكرة – اذا سمحتم بهذا التعبير – فقدمت للقطعة بالكلمة الارتجالية التالية :

ايها السادة .

لا شك في انكم استغربتم كيف ان هذا التلميذ « المتفوق » تلعثم أمامكم . ولكن لا تتعجبوا . فالفرنسية ليست لغتي ولغتكم . لهذا سترون انني اجيد الحفظ والالقاء في لغتي العربية .

والقيت القطعة دون توقف أو نسيان . وزادني الانفعال حماسة واجادة . واشتعلت اكف السامعين بالتصفيق . وحادثة اخرى مثيرة حدثت لي في مدرسة المعلم بولس : فقد اعد رواية تمثيلية لآخر السنة وأعطاني دورالبطل . أما البطلة فكانت فتاة جميلة جداً من أقاربي ،بيضاء اللون ، زرقاء العينين ، ذات شخصية جذابة واسمها « كوكب » ، وتصغرني بسنتين . وكان بيني وبينها ذلك التجاذب العاطفي البكر ، الخجول .

ورغم هذا التجاذب المتبادل ، كان الخجل يمنعنا من التعبير عنه ولو بقبلة بريئة عابرة . إلى ان دخلنا «كواليس » الرواية ، استعداداً لبدء التمثيل . وكان دور البطل والبطلة يقضي بالمعانقة في أحدالمواقف . ولكن المعلم بولس الذي كان (حاطط عينو على كوكب) أوصانا سلفاً بعدم التقبيل ، والاكتفاء بالمصافحة . غير ان عواطف القلبين الفتيين المشتعلين بنار الحب ، كانت اقوى من ارادتنا وارادة المعلم « الغيور » . فما ان وقعت عيناي في عينيها ، حتى كان الفم يغمر

الفم بقبلة طويلة لاهبة ، وددناها لا تنتهي لولا ان فاجأنا المعلم بدخوله ، فارتجف وقال :

ولك شو عمتعملوا ؟ وبالكاد استطعت ان اجيبه : عمنمثّل يا معلمي . عمنمثل دورنا . فقال بغضب : انا قلت لكم مش هيك تمثلّوا ! ... ثم طردنا إلى الخارج .

وبسبب وقوف والدة كوكب إلى جانب المعلم ، افترقنا حزينين موجعين . وكان انني تزوجت عمتها ، وسافرت هي إلى الولايات المتحدة ، وتزوجت هناك مهاجراً لبنانياً مات منذ سنوات وأصبحت أرملة . ولكنني ما زلت احبها حتى هذه اللحظة لأنها كانت حبي الأول ومن فمها الحلو رشفت قبلتي الاولى . وقد سجلت هذه القبلة بالابيات التالية :

يا قبلةً في الثغر لاهبةً — صهرت وجودي في حلاوتها
ورشفتُ منها الشهد منعقداً — وبقيت عمري رهن نشوتها
في لجة الشفتين قد غرقت — روحي وذابت في حرارتها
اغمضت عيني خوف أبصرها — يجتاحني طوفان لذتها
ورأيتني سكران مشتعلاً — والقلب يرقص فوق لجتها
وتركت ذاتي ضائعاً ابداً — طعم الحياة ، بطعم نكهتها

ومن وحي تلك المدرسة دوّنت الخلجات التذكارية التالية :

يا زمان الدرس في عهد الصغَرْ — يا جميل الذكر يا حلو الصُّوَرْ

جلّس «الصف» ورحنا في الدروس — نسكب الغمزات خمراً في كؤوس
حولنا الهمس : عريس وعروس — والينا لفت الهمسُ النظرْ

تحت «فرخ الجوز» كم رُحنا نقيمْ — في الظلال الخضر ، في حضن النسيم

في العيون «الزرق» اغفو واهيم
واناديكِ : لقلبي يا «قمـر»

ويشعُّ الحسن فوق الشفتـين
عاقداً شهد اللمى في كلمتين :
بعد وقت الدرس ملقانا : فأين
نلتقي بالسر عن عين البشر ؟

لا تخافي – لن يرانا الناظرون
فانا احميكِ من رشق العيون
ادخلي داركِ بالصدر الحنون
وشغاف القلب بالباب خفر

بينما نحن بانسٍ وَهَنَـا
بين أيدينا التلاقي والمنى
اذ تقولين : انتبه . أُمي هنا
وعلى خديكِ من روحي أثر

ايها الدهر أجبني عن سؤال
اين ذاك العهد؟ كيف الحال حال
عند أهل الودّ ، هل جئنا ببال
ام رمى النسيان في البئر حجر ؟

اهل « الولاية » والجبل

وقبل ان اخوض في بحر الذكريات المتتالية ، التي سجلتها الاحداث على شاشة الذاكرة ، أود أن اسجّل هنا ، بعض الانطباعات العائدة إلى وضعي الجنوبي ، في أيام طفولتي وخصوصاً خلال سنوات الحرب العالمية الاولى التي سبقت الاشارة اليها في مطلع الكلام . ذلك لان تلك الانطباعات ذات صلة وثيقة بأوضاع الجنوب في تلك الأيام ، وهي قد ساهمت مساهمة كبيرة ومباشرة في ما آل اليه الجنوب بعد ذلك من تأخر وضعف من الناحيتين الثقافية والاقتصادية .

فقد كانت الدولة العثمانية الحاكمة المستبدة يومذاك ، تنزل الظلم الواناً بالجنوب وأهل الجنوب ، لانه كان معتبراً « ولاية » تحت الحكم العثماني المباشر. بينما كانت مليخ الجنوبية ، تقع ضمن منطقة جزين التابعة لنظام جبل لبنان

المستقل . لهذا كان ابناء الجنوب يساقون إلى الخدمة العسكرية طائعين أو مكرهين وهذا ما افقـر الجنوب وخصوصـاً جبل عامل ، وشرد أهله ، وقضى على الكثيرين من رجاله وشبابه خلال تلك الحرب . وما زلت اذكر حادثة مثيرة من تلك الايام . وهي انه خلال عام ١٩١٧ وكانت الدولة العثمانية قد اصبحت منهوكة القوى من جراء الحرب ، وفدت على مليخ شرذمة هربانه من الجيش التركي ، وهي دون سلاح وتكاد تكون دون ملابس . فعسكرت امام بيتنا . وخاف منها الجيران . ولكنني اندفعت نحوها دون خوف وتحدثت مع أفرادها ، فطلبوا مني ماءً وطعاماً بلهجة استعطاف فلبيت طلبهم بسرعة ، وتجمع الجيران عليهم . فاذا هم جميعاً من ابناء جبل عامل . وقد ودعونا شاكرين وهـم يهنئوننا على اننا من الجبل ولا نذهب على العسكر . وهتف بعضهم . الله يخربك يا تركيا كما خربت بيوتنا ورملتِ نساءنا ويتّمت أطفالنا ... ثم انسحبوا باتجاه « مزرعة الرهبان » الواقعة فوق جباع وهم يلوحون بأيديهم ويقولون : قريباً تنكسر تركيا ، ونعود إلى أهلنا وبيوتنا .

احداث ١٩٢٠

وفي سياق الذكريات ، لا بد من الاشارة إلى ناحية وطنية وأخلاقية رافقت الاحداث التي وقعت في لبنان – وخصوصاً في الجنوب – عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ على أثر انتهاء الحرب واختلاف الدول المنتصرة ، على تقاسم تركة « الرجـل المريض » المنكسر ، وكانوا يعنون به الحكم التركي . فقد نشب الخلاف بين الحليفتين فرنسا وبريطانيا على احتلال سوريا وفلسطين ولبنان ، أو على التسليم للشريف حسين بانشاء الدولة العربية الموحدة والمؤلفة من الاقطار العربية التي كان يحكمها الاتراك . وعندما اعلنت الدولة العربية في سوريا تحت حكم الامير فيصل ، وجد في لبنان من يؤيد الحركة الهادفة إلى ادخال لبنان في هذه الدولة . ولكن فرنسا رفضت وطمعت بتحقيق انتدابها على سوريا ولبنان مقابل انتداب

بريطانيا على فلسطين والعراق . وقام انصار « الوحدة السورية اللبنانية » من اللبنانيين بحركات « ارهابية » بقصد اجبار المعارضين على الرضوخ . وتألفت عصابات عرفت يومذاك بعصابات « المتاولة » انتشرت في الجنوب وأخذت تعتدي على القرى المسيحية المناوئة للوحدة وكان يسيرها بعض الاقطاعيين والمتزعمين ويستغلونها سياسياً وطائفياً . وربما كانت أيضاً تلقى التشجيع والتسليح من فرنسا نفسها ، لكي يكون اعتداؤها على المسيحيين ، وسيلة وحجة لتحويلها من ثورة تحرر وطني إلى ثورة تعصب ديني أو طائفي ، وبالتالي تكون حجة لتسليح المسيحيين ، وضربهم باخوانهم الشيعة تحت ستار الدفاع عن النفس .

وجاءت احدى هذه العصابات إلى مليخ وحاولت الاعتداء على البيوت المسيحية ، فقاومها السكان الشيعة وأفهموها ان أهل البلدة يعيشون كأخوة منذ القديم ، ويرفضون أي تدخل غريب بشؤونهم وانهم سيقاتلون كلهم ايَّ متدخل للاخلال بهذا المبدأ . فأنصرفت العصابة تحت جنح الليل .

وبعد بضعة اشهر . وبعدما تغلبت فرنسا على الدولة « الفيصلية » واحتلت دمشق ، جرى تسيير عصابات مسيحية مسلحة تغزو القرى الشيعية كردة فعل . وجاءت احداها إلى مليخ برئاسة شخص يسمى عيد دياب من الكفور وحاولت الاعتداء على الشيعة ، فهب المسيحيون في وجهها وطردوها كما فعل اخوانهم الشيعة قبلهم بالعصابة الشيعية السابقة . وهكذا دلّلت مليخ على انها محكومة دائماً بالعقل والوعي والمحبة المتبادلة التي تقيها جميع الاخطاء والعثرات .

في قطين ومشموشه

عام ١٩٢٣ ، كان والدي قد عاد من الولايات المتحدة ، فادخلني مدرسة أهلية في دير قطين للرهبانية الانطونية المارونية ، لان مليخ لم يكن فيها لا مدرسة أهلية ولا مدرسة رسمية . وكانت مدرسة قطين ابتدائية وشبيهة بمدرسة « تحت

السنديانة » ولكنها كانت أكثر جدية وتماسكاً . وكان يعلمنا راهب اسمه الاب جناديوس دوين ، وكان شاعراً . وقد وجهني إلى محبة الشعر عن طريق إقامة مسابقات حفظ وإلقاء . فنلت الأولية بقصيدة « البنفسجة » للدكتور نقولا فياض التي مطلعها :

اهوى البنفسج آيـــة الزهـــر   في الشكل والتصوير والعطــر

وأصبحت أحمل لقب « التلميذ الأول » في المدرسة .

وفي السنة التالية ١٩٢٤ نقلت إلى مدرسة سيدة مشموشه ، في قضاء جزين أيضاً ، للرهبانية المار ونية البلدية . وهي المدرسة النظامية الوحيدة في المنطقة التي كانت ذات مناهج وبرامج تعليمية محددة وواضحة . وقد جمعت طلاباً من جميع انحاء لبنان ومن بعض الأقطار العربية ومن جميع الطوائف أيضاً .

ولمدرسة مشموشه حكاية طريفة وشديدة التأثير في مجرى حياتي .

فقد دخلتها بذهنية « التلميذ الاول » في المدارس الابتدائية والبدائية . وقد جمعونا في قاعة الدرس الكبرى ، بانتظار توزيعنا على الصفوف أو تصنيفنا بعد اداء امتحانات الدخول . وإذ دخل علينا راهب جليل ذو لحية بيضاء ونظارتين لماعتين ، عرفت بعد ذلك ان اسمه الاب جرجس حرفوش فقال وهو في الباب :

تلاميذ الصف الاول ، يلحقوني ، وخرج . وخرج في أثره خمسة تلاميذ ، وجدتني أخرج وراءهم دون أن اعي خطورة أو مسؤولية ما أنا مقدم عليه . وكان التلاميذ الخمسة :

مارون قطار – الذي أصبح طبيب قضاء جزين فيما بعد – والياس ريشا ، الذي أصبح من كبار المهاجرين إلى الارجنتين ، ومن أعز أصدقاء الرئيس « بيرون » الذي أرسله إلى لبنان عام ١٩٥٦ بهدية نقدية للدولة للمساعدة في بناء مأوى العميان في محلة الورواز ، ونايف عازوري الذي ترك الصف بعد يومين ،

ويوسف منصور ، ومارون كوكباني ، من عيتنيت البقاع ، احد كبار موظفي مجلس النواب اليوم ، اطال الله بعمره . وكلهم كانوا قبْلي في المدرسة، ويعرفون منهاجها ، كما يعرفون صفهم الرسمي فيها منذ السنة الماضية .

كتب الراهب على اللوح الأسود ، هذه العبارة :

انت امام طائرة تخترق الفضاء .

صف شعورك ، شعراً !

ثم انصرف خارجاً !

انا والخليل بن أحمد

ويلاه ... أنا لا أعرف من الشعر شيئاً ، لا نظماً ولا وزناً ، وان كنت الاول فيه ، حفظاً ! فكيف العمل ؟ وما هذه الورطة التي أوقعت فيها ذاتي ؟

فجأة وزعوا علينا كتاب : « مطالع الاضواء » للمعلم سعيد الشرتوني . فتحت الكتاب وقلّبت صفحاته بلهفة ، فعثرت على بحور الشعر الستة عشر وأولها الطويل مع تفاعيله الموضوعة تحت هذا البيت التصوفي لابن الفارض :

هو الحب فاسلم بالحشاما الهوى سهلُ　　فما اختارهُ مضنىً به وله عقلُ

فَعُوْلُنْ مَفَاْعِيْلُنْ فَعُوْلُنْ مفاعِيْلُنْ

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلـــــن

مع جواز ابدال مفاعيلن بـ (مَفَاعِلُنْ)

فتنفست الصعداء ولكنني لم أفهم من التفاعيل شيئاً . وعند المساء أخذت الكتاب إلى غرفة نومي . وكان (للعذراء مريم) صورة فوق الباب وعلى ذراعها الطفل يسوع وهي شفيعة الدير والكنيسة على اسمها . فنظرت إليها بانكسار الغريب الذي هزىء منه رفاقه وهو لا يدري كيف يتخلص من ورطته ، وخاطبتها بهذه الكلمات البريئة الايمان :

« يا عذرا أنا ضيفك ومتكل عليك . وأنت لا تخيبين رجاء المتكلين . فأرجوك أن تساعديني وترشديني إلى ما يجب علي أن أفعل لكي انجح ، فأنت أخبر مني وأدرى بحالي » . وهذا الدعاء ، اسجّله للتاريخ وللصدق في سرد التذكارات كما وردت في حينها .

وقد صحوت في اليوم التالي ، لكي أجد يدي فوق اللحاف قابضة على القلم ، والدفتر فوق صدري ، وعليه هذا البيت الوحيد الذي كان حصيلة سهرتي وجهدي :

الايا مشيد الرحل في موطىء النسر لمن تركْتَ معمورة الصرح والقصر؟

المفاجأة المذهلة

وفي قاعة الدرس ، أكملت « القصيدة » المؤلفة من أربعة أبيات استطعت نظمها مستأنفاً مخاطبة الطيار :

كفاك ارتفاعاً في سماء العلى فقد غدت منك طير الاوج حسرى وفي ذعر
تنازل لنحو الارض واخفض جوانحاً علت في رقيع الفلك مع راية النصر
لها سُحُبُ الافلاك أمست مطيةً فليست سوى حملٍ على عاتق الدهر

وكنت قد عرفت ان هذه المسابقة الشعرية سينظر فيها الشاعر المعروف في المدرسة الراهب الاخ لويس الرشماوي — الذي صار (مُدبّراً) فيما بعد — فألحقت الابيات الأربعة بهذا البيت من قبيل الاعجاب به :

اليكم لويسُ مِدحةً من صديقكم فاوصافكم عزت وجلّت عن الحصر

وإذا به يجيبني بهذين البيتين على الوزن والقافية وعلى الورقة نفسها :

تباركت رب الحب كيف وصفتني لك الشكر مني في قياسٍ من البحر

ولو كان قولي في البرية نافـــذاً   لصغتُ لك الباقي عقوداً من التبر

وتحت البيتين هذه الكلمات : احسنت . اهنئك بمستقبل حسن ! أما كيف احرزت الاولية فهذه هي الحكاية :

دخل الاب حرفوش علينا وجمع أوراق المسابقات ، قبل أن أتمكن من تبييض القصيدة ووضع توقيعي عليها فضلاً عن انها كانت مكتوبة بخط رديء . وعندما عادبها اعلن فوزي بالأولية ، مع التهنئة « بمستوى » الشعر الذي نظمته لاول مرة .

وفيما بعد ، عرفت انني دخلت صف البكالوريا دون ان أدري ، لان صفها كان الاول حسب نظـام المدرسة . ودليل ذلك أن علم المعاني والبيان والعروض ، لا يدرس الا للصفوف الثانوية العالية . وهكذا من مدرسة « تحت السنديانة » الابتدائية والبدائية ، إلى صف البكالوريا والاولية فيه دفعة واحدة . وقد تملكني شعور واعتقاد ان العذراء هي التي ساعدتني ، لان الفوز في هذا الصف كان يفوق مقدرتي الذاتية والتحصيلية .

قبلة بالغلط

في هذا العام أيضاً ، ١٩٢٤ وقع لي حادث عاطفي هزني هزاً عنيفاً . فقد ذهبت بنا ادارة المدرسة – وكنت داخلياً – في رحلة شم هوآء في قرية «بسري» وكان النهار حاراً . وقد استضافنا بيت آل سلامه هناك . وكان أحد ابنائه الاستاذ جوزف ، مناظراً في المدرسة ، وأخوه الياس تلميذاً فيها وهما اليوم من كبار المحامين المرموقين ، ومبالغةً في تكريمنا أخذت سيدات المنزل وآنساته يوزعن علينا شراب الورد . وكنت واقفاً بالباب الذي يغصّ بالطلاب الآخرين ، وقد اقبلت احدى الاوانس المشعات كالشمس ، وهي تحمل صينية الشراب ، فعثرت رجلها واختل توازنها وانقلبت نحوي ، فوقع فمها في فمي ، فشعرت كأن

سلكاً كهربائياً قد مسني فأرتعد له كل كياني ، بينما ازداد تورد خديّ الفتاة من الخجل والارتباك . وعرفت فيما بعد ان اسمها هو « إميلي » فنظمت هذه الابيات متغزلاً بها ، ملغزاً باسمها :

ما اسمٌ سبى عقلي بسبك الاحرف ومضى يزيد تلوّعي وتلهّفي
هي أمٌّ «آمالي» ولي في وصفها شغفٌ يرف على فؤادي المدنفِ
عانقتها «غَلَطاً» ويا ليت العنا ق لنا استحال معبّراً عن موقف
لسعدتُ أو اسعدت عيناً عاينت حسناً ، يقول لطلعة الشمس اختفي
سأظلُّ أذكر ما حييت جدائلاً نثرت على وجهي عبير تعطّف
ولثغرها الجوريّ بسمة مُسْتَحٍ ولعينها الحوراء لحظ تعفف
« أملي » وارجو أن تظل حروفه ترتيبها الايجاب لاحرف النفي

وانتشرت هذه الأبيات بين التلاميذ فاعجبوا بها وأخذوا يرددونها ويتغنون بها .

مدرسة وزواج

وفي السنة الثانية ١٩٢٥ ، عدت إلى مشموشه ، وكنت قد أصبحت خاطباً احدى نسيباتي من مليخ وهي عمة « كوكب » بالذات وقد أصبحت أم البنين فيما بعد . فقد تزوجنا ولي من العمر ١٨ سنة . في ذلك العام ، ظهر ميلي المبكر إلى الصحافة . وقد انشأت جريدة « الشوق » وأنا في مشموشه ، وكنت اتوج بهذه الكلمة ، رسائلي إلى خطيبتي وأهلي وأصدقائي . كذلك قدر لي أن أمرض قبل نهاية هذه السنة ، فتركت المدرسة إلى غير رجعة قبل نهايتها بشهر واحد ، وأنا لا أحمل أية شهادة ، حتى ولا «السرتفيكا» . فعكفت في مليخ على الدرس والمطالعة ، وفتحت مدرسة خاصة لاولاد الطائفتين . ولاول مرة يسمح لمعلم مسيحي بان يعلم أولاد المسلمين في كتاب « جزو عما » هكذا يسمى – وهو جزء من القرآن ، وذلك بموجب فتوى من الشيخ عبد الله الحر في جباع .

وقد افرحني هذا الامتياز وهذه الثقة ، فانصرفت إلى تعليم التلاميذ بكل جد ونشاط ، لا مبادىء القراءة والكتابة وحسب ، بل اصول المحبة والتعاون واعتبار الناس جميعاً اخوة وأبناء عائلة واحدة . وكنت أذهب بالتلاميذ جميعاً إلى الجامع أو الكنيسة في المناسبات الدينية المألوفة . ونظمت ندبة للعاشوراء ، كان ينشدها التلاميذ جميعاً ، ثم تبناها الشبان من الطائفتين ، وكانوا ينشدونها في عاشوراء النبطية وجباع .

ولعل هذا الاتجاه في تعليم الاولاد ، كان له مساهمة في احتفاظ أهل مليخ بسلامة موقفهم وهدوء اعصابهم خلال حوادث ١٩٥٨ و ١٩٧٥ .

ومن مليخ راسلت بعض كبريات صحف بيروت ، مثل « الاحرار » « ولسان الحال » « والاحوال » وغيرها . وبعض صحف مرجعيون مثل «النهضة» « والقلم الصريح » « وصدى الجنوب » . وأذكر انني كنت أكتب في « النهضة » تحت عنوان : « من مروج الافكار » . وقد كتبت مقالاً بعنوان : الامل وعلى الطريقة « الجبرانية » جاء فيه :

ايها الامل
يا جناح الطموح
وبلسم الجروح
وسمير القلب والروح
يا موقظ الهمم
ومحيي الرمم
وقاهر العدم
يا مهماز الجهود
ونسغ الوجود
وسلم الخلود
أيها الامل

• • •

وأذكر ان الزميل العزيز الاستاذ الفرد أبو سمرا صاحب « القلم الصريح » ارسل الي رسالة مع الصديق المرحوم نذير متى من دير ميماس – ولست أدري اذا كان يذكر ذلك – جاء فيها :

ايها الديك الفصيح . خذ مني الكلام الصحيح .
اذا شئت أن تهنأ وتستريح .
فراسل القلم الصريح .
فيحملك على بساط الريح
ويجعل ميدانك الفلك الفسيح !

في حقل التعليم

الواضح انني تركت المدرسة نهائياً عام ١٩٢٥ دون ان يكون في يدي أية شهادة مدرسية ، حتى الابتدائية المعروفة « بالسرتفيكا » . ولكنني استعضت عن ذلك بالانكباب على الدرس والمطالعة ، في شتى الكتب والمواضيع ، الادبية والتاريخية والسياسية ، وكتب اللغة في الصرف والنحو مثل : كتب الشرتوني ، وكتاب «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات ، « والاجرومية » « والفية ابن مالك » إلى آخره . كما انني علمت التلاميذ في مليخ وسنيا وصيدون – منطقة جزين ، وفي صربا – منطقة صيدا . وكل هذه القرى ، لي فيها تلاميذ وأصدقاء ، خرجوا إلى الحياة العامة ، وأصبح الكثيرون منهم أصحاب مراكز مرموقة في دوائر الدولة والمؤسسات العامة والخاصة . وكان ذلك في الفترة الممتدة من ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٩ .

ولكن انصرافي إلى التعليم ، لم يمنعني من استمراري في ممارسة هوايتي القديمة المفضلة « مراسلة الصحف » وقرض الشعر . وقد أرسلت عام ١٩٢٥ قصيدة إلى الاب جناديوس دوين ، معلمي في دير قطين قلت فيها :

ذكرت معلمي فحنيت هامـي ... وفاح بخاطري عطر الاسامي
على يده استطالت من جناحـي ... رياش مطامحي فـوق الغمـام
تعهـد خامتي بالصقـــل حتى ... تجلّى ارجواناً كلُّ خـام
سقاني الشعر خمراً عبقريــاً ... فروّى غلّتي وافاض جامـي
وأطلق باز الهـامي لصيـــدٍ ... فعاد وحملـه « طير » النعـام
واقحمني على فلك القـــوافي ... فكان النجم صيد الاقتحـام

* * *

مرابع صبوتي حيتـكِ مـــني ... لواعج هاجسٍ في القلب حامي
مرابع صبوتي يا زهر عمـري ... وزهو العيش في كنـف السلام
لذكرك في الحشا لفحات شجوٍ ... تغلف يقظتي برؤي منـامي
وتفتح صفحةَ الايام عنـــدي ... سجلّ تَفتّحٍ للمجد ظامـي
أرى الدنيا خلالك عرس حـبٍ ... انا فيـه عريسُ الإبتســام

معلّميَ المكرّمَ زاد شوقــي ... لمرأى شخصكم بعـد الترامي
بعثت قصيدتي تهديك عـــني ... وفاء العمـر مع اوفى السـلام

وقد أجابني معلمي بالأبيات التالية :

أتاني شعركم كالبحـر طامـي ... فاضحى موردي والقلب ظامي
مشعشعةً رشفـــت الخمر منـه ... فبردّ جذوتي وشفـى أوامـي
واحيـا ميّت الآمـال مـــني ... وامسى مُنْيَتي وغدا غرامـي
وكان الهجر ارّقـني طويـــلاً ... تلوت سطوره ، فرفعـت هامي
كأني الصب من طربٍ يغـــنيّ ... على فنن المسرّة والهيـــام
وحبّبـني التشبـــب في اديـبٍ ... طليق الوجه اودع من حمـام
وذي قلمٍ احدّ من المـــواضي ... وعقل قـد تزيّن بالتمـــام

رأيت بشعره عَجَباً عُجاباً   برغم العمر مع لين العظام(١)
حسبت هناك شعراً جاهلياً   بسوق عكاظ ينشده التهامي(٢)
معانٍ خالبات قد تباهت   بها قحطان من عرب الخيام
فدقّت في محاسنها ورقّت   كحورٍ سافراتٍ عن لثام
هويتك يا ابن داودٍ – لأني   رأيتك سالكاً درب السلام
وقد برهنت عن ادبٍ وفضلٍ   فمثلك ذو وفاءٍ في الانام
ولو أني زيادٌ (٣) يوم فخرٍ   لخصتك القوافي بالوسام

وداع مشموشه

كما انني نظمت القصيدة التالية في وداع مدرسة مشموشه صيف ١٩٢٥

اعد ذكرى الاحبة يا خليلي   وذكّرني بماضيَّ الجميل
لعل بذكره يروي غليلي   ويشفى السقم من جسمي العليلِ

وعج بي نحو أوقات سعيدة   نأت عني وما زالت بعيدة
فكم اشتاق عودتها المجيدة   ولكنّي ألوذ بمستحيلِ

وكم أصبو إلى ديرٍ هناكا   علت صلبان قبته السماكا
فلو يمّمته يوماً دعاكا   تسبّح قدرة العالي الجليل

تربّع فوق تلٍّ واستقاما   يحيط به الصنوبر حيث قاما
يميناً أو شمالاً أو أماماً   ترى الغابات في ظلٍّ ظليل

---

(١) اشارة إلى انني كنت في السادسة عشرة يومذاك .
(٢) اشارة إلى النابغة الذبياني الذي كان يترأس سوق عكاظ .
(٣) زياد اسم النابغة .

على اسّ العبادة قـد بنـاهُ رجال الدين ، بل اعلوا بناهُ
فروض الفضل زاهٍ في حماه وشمس العلم جلّت عن افول

به الطلاب من كل الطوائف وكلّهمُ ثمار العلم قاطف
يعاملهم سواءً بالعواطف وبالتعليم والحب النبيلِ

وقد أجابني على قصيدتي بقصيدة طويلة عامرة ، الأخ رافائيل مطر يومذاك باسم المدرسة – وقد صار فيما بعد رئيساً لدير سيدة مشموشه – ولكن هذه القصيدة ، ويا للاسف ، كانت بين المنهوبات أو المحروقات في بيتي عام ١٩٧٦ في عين الرمانة . ولكن الذاكرة ما زالت تحتفظ بمطلعها القائل :

حماك الله من « كان » المبيدة ولا زالت حياتكمُ سعيدة
وموعدنا ، هو السنة العتيدة وقد اضحت على وشك الوصول

ولكن وداع المدرسة ، كان أبدياً .

متفرقات

وفي مشموشه ، كنت قد بدأت بنظم بعض الأبيات الاجتماعية و «الحكمية» من نوع : « المثالث والمثاني » التي كانت رائجة في الشعر يومذاك ، مثل « الرباعيات » والخماسيات . وقد وجدت بعضها في أوراق مطوية ضمن كتبي التي سلمت من التلف ومنها :

حديث الاحبة

اني ليردعني العذول فانتشي واحبّ ذكراكم – ولو بمسبةِ
ما ملت نحو الحاسدين مصدّقاً لكنني أهوى حديث احبتي

٩

المداهنة

ولما رأيت المكر في الناس فاشياً وراجت لديهم سلعة الكذب والمين
دعوتُ – على كرهي – العجوز – أيّا «فتى»
وناديت اعماهــم « بيا أدعَـــجَ العـــــين »

الشهم والنذل

اذا خاصمت انســانـــاً شريفـــاً وآذته الحقيقــةُ في مقالِــكْ
تواضعَ مذعنـــاً ان كان شهمـــاً وإن نذلاً – تعلق في قـذالك

الحسد

يأكل الحاسدُ مـن اكبـــادِهِ فوق ما يأكلُهُ مِـمّـن حسـدْ
وينال المبغضَ النـــاسَ الاذى من لظى البغضاء–روحاً وجسد

الكلام

جوهرٌ– بالصَّدَفِ البَخْس اختلطْ كمعاني الحق في القول الغلَـطْ
لو جمعنا ، اشقعنـــا هـرَمـــاً إنما قد نقبض الريح فقـــط

الطفولة

جوقة الترنيم في عرس العـــذابْ ورشة التعمير في صرح الشبابْ
طَلّةُ الغافي على فجـــر الرؤى ورحيل العمر في درب الغياب

الشيخوخة

شمسٌ – بسفح العمر عالقـــةٌ مصفرّةُ الخدّينِ من وَهَــنِ
والناس حول شعاعها غبَــشٌ صَرْعَى ،سكارى ، دورةالزمَنِ

متمسكين بها على أمـل ان يخلصوا من قبضة العفن
لكنها تمضي ، بلا كسل تطوي وتنشر – صفحة الكفن

هدية زهور

اهدي اليك الزهر رمز محبتي فيقول ما تخفي النفوس وتظهر
والفرق بينهما – مزاج طبيعة الزهر يذبل – والمحبة تزهر

البغضاء

يظل الناس في عـز وانـس وحسن تعاشر وجميل فعـل
إلى أن تضرب البغضاء فيهـم فتقتلهم ، بلا ضرب وقتـل

الثقافة والاطفال

أنا من المؤمنين كل الإيمان ، بجدوى ممارسة التثقيف الوطني والاجتماعي المبكر للاطفال ، خصوصاً في محيطهم المدرسي . وهذا ما يقصد به « التربية الوطنية » التي تصهر أبناء الوطن الواحد في بوتقة الشعور الواحد ، تجاه الوطن المشترك ، وتجاه أهله الذين يجب أن يشكلوا العائلة الواحدة ، المنسجمة الاهداف والمشاعر . ولو كان في لبنان « تربية وطنية » حقة ، لما كان في هذه الحال التعيسة المتردية في الوقت الراهن ! لذلك وضعت حواراً بهذا الصدد ، بين التلميذ والمدرسة ، كان له فعله الرائع بين تلاميذي ، المختلفي الاعمار والمواهب والمذاهب . وقد راعيت وضع جميع الطلاب في الصيغة التي وضعتها للحوار ، من حيث المفهوم الوطني ، ومن حيث لغـة التعبير عنه ، بكلمات يستسيغها الاحداث والفتيان والشبان والشابات على السواء :

المدرسة تخاطب التلميذ

يا سنَدي يا ولَدي — يا شاغلي للأبَدِ
مالي سواك من رجا — تعال واسكن كبدِي

تعالَ أسمعني غناكْ — تعالَ نشّقني هواكْ
تعالَ دينّي ذكاك — وخذهُ مني في الغدِ

أُعطيكَهُ « مُدوبَلا » — بنضجه مكمّلا
بمجدهِ مكلّلاَ — مؤهّلاً للسؤْددِ

من اضلعي لك السريرْ — نم بالهنا فوق الحريرْ
وعندما تمسي قدير — اسهرْ على الإرث الندي

كن قائداً ، كن سيداً — كن رائداً يطوي المدى
كن بطلاً يردي الرّدى — والعزّ ثوباً يرتدي

يا نسر آمالي الصغيرْ — عشك في القلب كبيرْ
وفي غدٍ حين تطير — اذكر جميل المرقدِ

لبنانك الغالي عليكْ — في ضيقه يرنو إليكْ
امانة بين يديك — فاحفظ امانات اليدِ

جواب التلميذ

يا حاضني يا معهدي — يا مهجةً في جسَدي
ناديتني – ها إنني — نارٌ بحضن الموقدِ

روحي لك الدهـــر فـدى علّمتها درب الهدى
فاحرص عليها جيداً واسمُ بها للفرقد

ديّنتني علماً صحيحْ صيرتني ديكاً فصيح
خذهُ وفاءَ المستميح عفوَ العطاء المسعِدِ

في حضنك الدافي غفوتْ في عطفك الوافي صحوتْ
في جوك السامي علوتْ فوق الزمان الامرد

يا مصنع النشء النبيلْ ونورَهُ - جيلاً فجيل
اني لعرفان الجميل اطوي الدجى واغتدي

تريدني ربَّ القلَم ؟ أو قائداً يحمي العلَم ؟
لبيّك عنكَ لم أنَمْ اليك قلبي ، ويدي

لبنان يا أغلى وطَنْ لا تخش غدرات الزمن
تفديك روحي في المحن يا أمة المجد اشهدي

الولد والزهرة

وحتى تترسخ روح المحبة والجمال وحب الطبيعة في نفسية التلميذ ، وضعت هذه القصيدة بلسان الولد يخاطب الزهرة :

يا زهرتي يا زهرتي انت عبيرُ البهجةِ
انتِ لُهاثُ ارضنا انتِ هتافُ الجنةِ
يا زهرتي يا زهرتي

بريحــــــكِ المطيّـــبِ وشكلـــــكِ المحبّــــبِ
سوحي بقلـــبي والعـــبي يا طفلـــةً من عيلـــتي
يا زهرتي يا زهرتي

في دارنا انــــتِ طيبـــبْ ينضحنـــا ، عطـراً وطيب
يمنحنـــا جـــوّاً رطيـــب يشفي دفـــين العلّـــةِ
يا زهرتي يا زهرتي

ضحكتـــــكِ المهذّبـهْ صورتـــــكِ المذهّبَـــهْ
ريحتــــــكِ المطيّبـــة تفكهـــتي وخمـــرتي
يا زهرتي يا زهرتي

زهراء يا بنـــت الغديـــرْ حسنك بالحـــب جديـــر
ان تعطشي عنـــد الهجـــير قومي اشربي مـن مهجـــتي
يا زهرتي يا زهرتي

انتِ مـلاك في النبـــــاتْ وانتِ رمـــز للحيـــــاةْ
انتَ البقا انتِ الوفــــاةْ وانـــت رمـــــز خلقتي
يا زهرتي يا زهرتي

المعلم في عيد

واكمالاً لجو المدرسة ، حييت المعلم في يوم عيده ، بهذه القصيدة :

جالي العقول وصائغ الآمــالِ أعَرَفْتَ وصفَ معلّم الاجيال ؟
هذي حياة النشء بين يديـه صا رت قبلة الآباء والانجــالِ
وأمانةً في عنقـه ، مربوطـــةً برباط حبّ طاهر الاذيـالِ

يحنو عليها ساكباً من روحـه هَمَّ الوصيّ وهمّةَ الصقّال
يشقى ويسهر ، كي تفيق عقولنا من رقدة الضَّيَعان والاهمالَ
يمسي ويصبح والكتاب رفيقُـهُ ودفاتر الاسمـاء والافعال
وينام مخمور الفؤاد بدرسـه يعطيه للشبـان والاطفـالَ
ثمراً يجيدُ من السطور قطافَـهُ بمهارة الكـرامّ والعسّال
ويصوغه ادَبًا وعلماً ناضجاً ، يهديه للطلاّب خير مثـالِ
ويقودهم للسير في درب العلى بسلاح علـمٍ او فصيح مقـالِ
ومسدداً خطواتهم ، ومصّححاً هفواتهم في خوض كل مجال
تتفتّح الافكار بين يديه مثـل تفتح الازهـار في الادغـالِ
فيصوغ منها للثقافـة غارهـا اكليل نصرٍ في البها متـلالي

كم نابغٍ من نبعهِ عَبَّ العلى وعلا على الاقران والامثـالِ
كم عالمٍ امسى بفضل معلّـمٍ ربَّ الفتوح وقاهر الاهوال

كم من فتاةٍ اشرقت بمحيطها بدراً تكمّلَ في ظلال هلالِ
أو من فتىً كانت تعلّمهُ فتـا ةٌ ، قد غدا في الناس نجم معالي
ومدرّسُ الاولاد ــ كان معلّماً رجلاً او الحسناء اختَ رجالِ
فكلاهما اهل لكـل فضيلـةٍ ومكارم الاخلاق والافضـالِ
نفس الرسالة للهـدى قد أدّيـا ومهمّةَ الاقـوال والافعـالِ
لبنان في كفّ المعلـم خزنـةٌ بغدِ الرجال مكينـة الاقفـال
عاش المعلـم قائداً ومجاهـداً في خدمة الاوطان والاجيـال

الانتقال إلى بيروت

عام ١٩٢٨ نشر أول مقال صحفي لي بتاريخ ٨ تموز وفي جريدة « النشرة الاسبوعية » التي كانت تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت ، وكان بعنوان : « الصحة في القرى » . وفي السنة ذاتها عينت موظفاً في « الدوائر العقارية » التي كانت مصلحة خاصة تحت ادارة الفرنسي « المسيو ديرافور » . ولكن بعد سقوط نيابة الدكتور حبيب ناصيف عن منطقة جزين – وهو الذي عينني – سرّحت من الوظيفة ولم أعد اليها . ولانتقالي يومذاك إلى بيروت حكاية طريفة تستحق ان تحكى :

نزلنا أنا وزوجتي في لوكندة اميركا الكائنة في ساحة الشهداء ، وكانت أكبر وافخم لوكنده في بيروت . وكنا ندفع ليرة لبنانية واحدة اجرة منامة كل ليلة . ولما طال الوقت ، وأخذ الأصدقاء يعاتبوننا على هذا « الاسراف » انتقلنا إلى لوكندة « ارخص » هي لوكندة « الحلال » التي كان موقعها في ساحة الدباس . ثم استأجرنا غرفة عند سليم ضو ، المستأجر في بناية الدبس على الجميزة ، وهو صاحب مطعم ضو المعروف حتى اليوم ، بجوار « دائرة البوليس » بساحة الشهداء . وقد اقفلنا الباب الذي كان يفصل بين غرفتينا ، مراعاة للياقة وراحة العائلتين .

ولكن بعد بضعة أيام ، وكنا قد الف بعضنا بعضاً ، واصبحنا كأبناء عائلة واحدة ، دخل علينا سليم وزوجته مقترحين فتح الباب والمشاركة الفعلية والأخوية في العيش ، إلا ما حرّم الله ، من العلاقات الاخرى . فرحبنا بالاقتراح وقلنا ان هذا كان تفكيرنا نحن أيضاً ، والفضل للذي سبق . وهكذا حطمنا القفل وفتحنا الباب ، وعشنا معاً ، عيشة الاخوة والأهل ، وما زلنا اصدقاء حتى هذه الساعة . أما الآن ، فكم اتخيل باب غرفتنا يومذاك ، وكأنه اليوم ، تلك البوابة المقفلة بالرصاص ، والقنابل ، بين المنطقتين الشقيقتين ، الشرقية والغربية ، من

بيروت الواحدة التي هي بيت اللبنانيين جميعاً . وأعتقد جازماً ، ان وراء هذه البوابة اليوم — من الناحيتين — الالوف من القلوب والعقول والضمائر ، التي يمكن ان تكون اصفى وأكبر من قلب وعقل سليمان أبو زيد وسليم ضـــو وأكثر توقاً إلى استئناف حياة الالفة والمحبة الاخوية بين جميع اللبنانيين . الذين يتحفزون لاقتحام هذه البوابة « الوهمية » البغيضة ، المقفلة بمسامير الريبة والحذر ، لكي يحطموها ويفتحوها على مصراعيها ، لحياة الحب والوفاق والتعاون المخلص الدائم .

الاسماء العربية المشتركة

عندما ولد ابني البكر عام ١٩٢٩ سميته « علي » لثلاثة اسباب :

١ — لانني من القائلين بنبذ التعصب الطائفي ، واستئثار المسيحيين بالاسماء الفرنجية الدالة على لون طائفي معين ، والمسلمين بالاسماء الدالة على دين بل على طائفة معينين ، مما يوحي بالتمايز والافتراق .

٢ — لانني معجب بعلي بن ابي طالب حكيم العرب وفيلسوفهم الروحي والاجتماعي .

٣ — لانني ادعو الجميع إلى اعتماد الاسماء العربية المشتقة الدالة على المعاني الجميلة الموحية : اديب . حبيب . نبيه . وديع . كريم . عادل . عصام . وسام . وسيم . حايم الخ ولكن مختار البلدة — وكان شيعياً هو المرحوم الحاج داود أبو ملحم — رفض قيد الطفل باسم علي ، بحجة انني المسيحي الماروني الوحيد الذي يقدم على هذا العمل في البلدة ، وانه لم يسبق لوالدي أو لجدي ... ان فعل ذلك . وان هذه التسمية ستثير المشاكل والحساسيات في الضيعة ، خصوصاً بين أفراد عائلتي ولما اصررت على رأيي وعدني بان يفعل ... ولكنه خلال وجودي في بيروت ، قدم الاسم لدائرة نفوس جزين على انه جوزيف ... سليمان أبو زيد .

ومع هذا ، فقد عرفت بين أصدقائي ومعارفي في مليخ وجوارها بانني « أبو علي » حتى الآن !

وداع مليخ

ولما تركت مليخ سعياً وراء العيش ، مثل الكثيرين من أهل القرى ، ودعتها بهذه الابيات من الشعر الشعبي الذي أحبه وارتجله ، ولي « ديوان » خاص به ، هو قيد الاعداد تحت اسم « الاغاريد » :

بخاطرك يا مليخ راح نمشـــي   الحكم انحكم وتنفّذْ برَمْشي
بودّعك والقلــب فيـك ظـــل   وباخــذ بدالو من الترّاب كمشي

بودّعك والقلــب فيـك ظـــل   وبعد صفو الكاس يشرب خل
وثابت بحبك عالمدى ما خـــلّ   حتّى المنيّه تخلخـل عظامي
وحتّى يمرّ بساحتك نعشي

حتّى المنيه تخلخـــل عظامـــي   روحي على الهجران منضامي
وقلبي لرشفة مبسمَــك ظامــي   يا مليخ قلبي عامليــه بعطـف
ورشّي عليه محبتك رشّي

يا مليخ قلبي عامليـــه بعطـــف   ذبلان مثل الورد بعـــد القطف
ودهري خطفني من ربوعك خطف   ولو حطّني في جنـــة الفردوس
بلاقي السما مع فرقتك وحشي

معركة مع التخلف

عندما تركت الوظيفة في بيروت عام ١٩٢٨ ، عدت إلى استئناف التعليم في مليخ ، مع المواظبة على مراسلة الصحف والمجلات البيروتية مثل : «الاحوال» «و الاحرار» «ولسان الحال» «والبيرق» وغيرها . ولكن المقال الصرعة الذي نشرته لي مجلة «العروبة» عام ١٩٣١ لصاحبها الشاعر الكبير المرحوم محمد علي الحوماني ، على اثر اختلافه مع الكثير من الزعامات الدينية والزمنية في الجنوب . وهذا الاختلاف ادى إلى الاعتداء عليه بالضرب وكسر يده ورجله . وكان موضوع المقـال : الدعوة إلى «العلمنة والزواج المدني المختـلط بين جميع الطوائف اللبنانية» وذلك لكي «يصبح اللبنانيون عائلة واحدة بواسطة هـذا التزاوج الحر ، وتنتفي من بينهم العنعنات الطائفية والتعصب الديني الذي يستغله الانتداب الاجنبي لاضعافنا وتمزيق وحدتنا الوطنية» .

وأثار المقال ضجة بين رجال الدين الشيعة ، الذين استنكروا «ان يتدخل هذا الماروني بشؤون الطائفة الشيعية التي لها وحدها حق معالجتها» .

وقد ناقشتهم في مكتب الحوماني حول هدفي وفكرتي ، ورويت لهم انني ادعى «أبو علي» وتلوت عليهم قصيدتي في رثاء الحسين يوم عاشوراء .

واذكر ان كبيرهم الشيخ عبد الله السبيتي – على ما أذكر – غمرني وقبّلني بعدما استمع إلى «ندبة» الحسين التي جاء فيها :

نكبة في الدين ادمت كل عَيْنْ ذاك يومٌ ذبحوا فيه الحسينْ

فدهى الاسلام ذا الخطب الجلَلْ وبركن الحق ، صدعٌ وخلـل
ليت كف «الشمر» وافاها الشلل فيداهُ كانتـا شرّ اليدين

امه « الزهراء » بل بنت النـبي
بلغت في الفضـل اعلى منصـب

وأبوه الشهـم زين العـــرب
حيدر الكـرار – فخر الثقلين

يا بني الإسلام قوموه فاندبـوه
والعنوا قوماً طغـاةً عذّبوهْ

فغداً في الحشر يأتيكـم أبـوه
شاهراً للحق ماضي الشفرتين

ثم قال لي الشيخ السبيتي : ظلمناك يا استاذ فيما مضى . أما الآن فأنت الحبيب المقرب . قلت : انني لا اقر استئثار كل طائفة لبنانية بشؤونها الخاصة ، لان لبنان كل لا يتجزأ . واساءة اي طائفة واحسانها ، هما اساءة او احسان إلى الوطن كله . وبهذا الشعور الوطني الشامل ، يجب ان نعمل وان نعيش . فقال : صدقت . بارك الله فيك وبامثالك من الاحرار المتحررين . والحادث الآخر المثير ، وقع في ١٤ تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ عندما توفي احمد شوقي امير الشعراء . ورثاه عدد كبير من شعراء العالم العربي . وكنت ناقماً على شوقي طريقته في « تأمير » الشاعر اللبناني امين نخله بقولته المشهورة :

هـــذا وليّ لعهـــدي
وقيمّ الشعـــر بعـــدي

وكل من قـــال شعـــراً
لا شكّ ، عبـــد لعبـــدي

لانني استنكرت ان يكون أمير الشعراء اللاحق ، « عبداً » للامير السابق . فكأن الامارة تمنح بعامل التفضل والمزاج الشخصي ، لا بفعل الاستحقاق والاختيار والمبايعة الجماعية . وقد ناقشت هذا الموضوع مع صديقي الشاعر الكبير المرحوم أمين نخله يومذاك وقلت له :

كنت اتمنى عليك – وأنت لا تقل شاعرية عن أحمد شوقي – ان ترفض هذه الامارة ، التي تأتيك على هذا الشكل . فتلجلج امين رحمه الله ثم قال : انت تعرف حراجة الموقف والاضطرار إلى مراعاة اللياقة والاعتبارات العديدة .

ثم ضحك وقال : قد تكون القافية جرت شوقي إلى هذا التعبير ... فلم ارد احراجه أكثر من ذلك . ولكنني بقيت غير مقتنع بسلامة الطريقة التي أمّر فيها شوقي صديقه أو « عبده » اميناً ....

في هذا الجو ، عمدت إلى مطالع قصائد الشعراء الذين رثـوا شـوقي ، وانتقدت ما جاء فيها من اخطاء لغوية ونحوية ومعنوية . ونشرت النقد في جريدة « لسان الحال » . وأكثر ما انصب نقدي على مطلع قصيدة « الاخطل الصغير » الذي جاء فيه :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره   فسدرة المنتهي ادنى منابـــره

فقلت في نقده :

١ ـ ان التقاء الحرفين المتجانسين في « قف وفي » هو اخلال بالفصاحة . ولو قال : قم لكان ابلغ وافضل ، لان القيام فيه حركة وهو ابلغ من الوقوف ، ويتفادى التقاء المتجانسين .

٢ ـ كان الاولى ان يقول : باسم شاعرها . حتّى يعود الضمير إلى «الربى» التي هي « المضاف » واليها يعود الضمير حسب قواعد اللغة ، إلى المضاف اليه وهو الخلد .

٣ ـ ان في كلمة « ادنى » في عجز البيت ، بعد « سدرة المنتهى » غلوّاً مستهجناً ، لا يجوز ان يصدر عن كبار الشعراء مثل الاخطل الصغير . فاذا كانت سدرة المنتهى « أدنى » منابر شوقي ـ وهي العرش الرباني ـ فاين هو « اعلى » هذه المنابر ؟ على اكتاف ربنا ؟ !

كذلك انتقدت مطلع قصيدة « أمير البيان » الامير شكيب ارسلان وقوله :

قد اعجز الشعراء طـول حياتـه   واليوم يعجزهم بندب مماتـــه

نقات : كان الافضل ان يقول : موته . لان ممات ، هي المصدر ، والموت الاسم ، وهو المقصود بالندب ... إلى آخر سلسلة الشعراء الذين رثوا شوقي وهم أكثر من عشرين . وقد قامت القيامة على : « سليمان داود أبو زيد الذي ينتطح لكبار شعراء العرب وينتقدهم ويتطاول عليهم » .

ولكن وجد من يدافع عني من كتاب وشعراء الاقطار العربية ويقول : « لا تنظروا إلى من قال ، بل إلى ما قال . فالناقد اصاب في نقده في مواضع كثيرة ويجب ان نشكره على ما فعل » ...

وعلى الاثر قصدت الاخطل الصغير – وكنت لم اجتمع به قبلاً – وبادرته بالقول :

« جندي صغير . في امارة الامير الكبير ، تطاول على فحول شعراء العرب ، وجاء الآن يقدم الطاعة لاميرهم الجديد » ... فدهش الاخطل ، وتفحصني ملياً بنظره الصاعد النازل ، ثم قال :

سليمان ؟ ... يهنيك على جرأتك وثقتك بنفسك ... واصبحنا صديقين حميمين منذ ذاك الحين ... رحم الله اخطلنا العظيم الخالد .

رثائي لشوقي

وهذا النقد لشعر الشعراء الذين رثوا شوقي ، لم يمنعني من نظم قصيدة رثاء له ووفاء لحبه لبنان جاء فيها :

في السما عرسٌ وفي الارض نواحْ فامير الشعر قد لف الجناحْ
بلبل في روضة « النيل » شدا فاذا الدنيا نشيد وصداح
شاعر ، كم كافح الدهر وقد حمل الشعر سلاحاً في الكفاح

فاذا قال غضوباً ساخطاً — كانت الالفاظ نبلاً أو رماح
واذا غنّى طروباً راضياً — سكب الالفاظ في الاقداح راح
بدوياً ، حضريّاً ، حاملاً — لجميع الناس افكاراً صحاح
قد سمت بالشعر منه همة — اذ رأى الشعر مصاباً بالكساح
بعث « المجنون » حيّاً خالداً — وستار الغيب عن « ليلى » ازاح

كان شوقي لربانا عاشقاً — ولها غنى وبالاسرار باح
فسقته بالوفا كأس الطلا — ووفته حقه تحت الصفاح
صدقته « جارة الوادي » الهوى — فسقاها من قوافيه القراح
جارة الوادي استحالت جارةً — لربي الفردوس مذ فيها استراح

بين لبنان وشوقي رفقة — فالوفا منا — ومنه الامتداح
وخلود الارز والشعر معاً — صفقة المجد المزكّى بالكفاح

في النضال الوطني

عام ١٩٣٤ ، اقدمت الدولة المنتدبة على الغاء نظام « البندرول » لزراعة الدخان الحرة في لبنان ، وأعلنت نظام « المونوبول » اي الاحتكار الذي ما زال قائماً حتّى الآن ، تحت اسم : « شركة الريجي » وقد الحق هذا الاحتكار اضراراً مادية ومعنوية جمة بالشعب اللبناني الذي عارضه بشدة ، وكان غبطة البطريرك الماروني انطوان عريضة في طليعة المعارضين . فقدّمت اليه عريضة استنكار للمشروع ، وعليها الوف التواقيع من مزارعي منطقة جزين . وكان مجلس النواب قد شيد حديثاً . وكان مشهوراً يومذاك ، جلوس مندوب خاص للمفوض السامي في مقاعد النظارة في مجلس النواب ، بحيث كان الكثيرون منهم ، ينظرون إلى « فوق » عند التصويت على المشاريع ... فاذا احنى المندوب رأسه ... كان ذلك علامة الموافقة . واذا رفع رأسه ، كانت علامة الرفض ...

وقد نظمت بهذا الصدد قصيدة مطولة ، تضمنت وصف المجلس الجديد ووصف نوابه ، نشرتها جريدة « الدبور » ولوحقت أنا والمرحوم يوسف مكرزل بسببها . وهي :

لمن البناءُ مزخــرفٌ ومبلّــطُ ... وعلى الاصول مهندسٌ ومخطّطُ
والسحب تضفر في السما اكليلهُ ... والنسر عن شرفاته يتزحلــطْ
والكهرباء تصب في عرَصاتــه ... سيلاً من الانوار لا يتنقّــطُ
وفسيفساء رواقــه لمّاعــة ... فكأنها جلد الأفاعي الارقــطُ
« ورياشه » الممتاز ازهر نقشه ... فكأنه الورد الذي يفــــرط
ومذوّب الابريز برقـع سقفــه ... فكأنه ضَرَمٌ يكــاد يشرقـط
هو مجلس النواب-واعلم يا اخي ... ان النيابة بالجــلال تُحوّطُ
لكنّ سر البيت في سكانـــهِ ... ولو انه فيه الحصير مُمَرَّطُ !
والمرء إبن خصاله وفعالـــهِ ... لا إبنُ فقرٍ او غنى ، لا تغلطوا
وأخو الظواهر بالحماقة « باقلّ » ... يلقي اللباب وباللحّا يتعربــط
كم في القصور سفاهــةٌ وبلاهةٌ ... وباوضع الاكواخ ، فهمٌ مفرط
وكذاك رائي برلمان بلادنـــا ... ليخالُ أنّا أمّــةٌ تتسلّـــط
لكن يُبَدّدُ ظنّه بسماعــــهِ ... نوابنَا مثل الضفادع يلغطوا(١)
فاذا بدا«المندوب»اخرس صوتَهُم ... وسبتهمُ نظراتهُ ، فتمغنطوا
لا عذر للنواب ان قالوا لنـــا ... ان «الغريب» على المخانق يضغط
فلو انهم وفّوا النيابة حقهـــا ... لكاتفوا ضد الغريب وعيّطوا
فانقاد مطلبهم اليهم صاغــراً ... أو حُلّ مجلسهم ، اذن فليُغبطوا
فبلادهم تجد الكرامة فيهـــمِ ... إذ إنهم بحقوقها ما فرّطــوا
فتعيدهم لمقامهـــم بحماســةِ ... وبصدرهم نوط الفخار تنوطُ
لكنّ حب موتَ نفسهــــم ... فتحملوا عار الخنى وتأبطــوا

(١) القصيدة من النمط النقدي الميال إلى التعابير الشعبيــة المألوفة . لذلك ورد بعــض التجاوزات اللغوية .

الارض أرض عيالنـــا وجدودنا
انكون فيها لانحلُّ ونربط ؟ !
والضيف فينا مُكْرمٌ ومعـــزّزٌ
افنمنح الريشَ الضيوف ونمعطُ ؟
ذا منطقٌ فجٌّ ، غريب زائــف
ما سَنّهُ إلا ظلـومٌ مفــرطُ

رفقاً فرنسةُ في « نعاجك » انهم
حسبوا انتدابك هيناً واستبسطوا
فاقضي بعدلٍ بينهــم وتأكــدي
ان العدالة للمصالــح ، احوطُ
قال « العميد » لنا مراراً انــــه
« منّاً وسلوى » للجياع سيبسط
افكانت السلوى المرادة شركــةً
«تبغ»البلاد بغير حق تضبط ؟!

سيجيء يوم يا فرنسة نشتفـــي
من عسفك الطاغي الذي يتسلبط(١)
ولسوف نبلغ في السيـادة سؤلنـا
وبعزة استقلالنا ، نتعربــطُ
والانتداب ، يزول عنا هاربـــاً
من غضبة الشعب الذي يتمرمط
وغداً يغوص الظالمون . بخزيهـم
وكرامة الوطن الابيّ تزلغـــط

محاربة الاقطاعية

إلى جانب هذا النوع من النشاط الادبي ، كان لي نشاط تحرري وتوجيهي على صعيد الامور المحلية . لانني كنت احارب الاقطاعية والاستزلام بكل مظاهرهما . وأذكر ان وفداً من اهالي مليخ ، كان قد لبى دعوة إلى مهرجان بعض الاقطاعيين في الجنوب . وعاد الوفد يروي مأساة ما وقع له من شرشحة وامتهان ، وكيف انه بقي دون طعام حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . ولما فلشت « مناسف » الرز واللحم على « الحصر » تراكض الجائعون وهم الوفـ ، وأخذوا يتخاطفون « القراعي » « والغمام » « والكراعين » وغيرها . وقال الوفد

(١) كان هذا الكلام عام ١٩٣٤ بمثابة تنبوءعما سيصيب فرنسا من مهانة واحتلال على ايدي الجيوش الهتلرية عام ١٩٤٠ . كما كان ايذانا بانفجار الثورة الوطنية العارمة العامة ضد الانتداب والحصول على الاستقلال عام ١٩٤٣ .

م ١٠

انه خطف « قرعة » وخطفت منه عدة مرات ، حتى وقعت أخيراً في حفرة وتمرغت بالتراب والوسخ . وعاد الوفد منهوكاً من الجوع . فقلت لهم على الفور :

يا ألله شوهـا لصـوره جيفـه – حواليها نسوره
جيوش الجهـل الحـراره « بقرعه » بترجع مكسوره

فصاح شبان الوفد : بعرضك . ما عدنا نعيدها . وهالرده لا تعيدها !

وعندما كنت في صور عام ١٩٤٧ ، جرى نقاش امامي بين فريقين تابعين للزعامتين المحليتين يومذاك ، وتحمس كل منهما لحزبيته ، فقال بعضهم : فلان ربها . شو بدنا بالحكي ! فقلت فوراً :

يا جنوبي يـا بو الامجـاد عْليك بخيرو ربك جـاد
اوعـا تجحد هالنعمـه وتتغاوى بارباب جـداد

كذلك منعت اصدقائي شباب « النوبه » في مليخ ، من استقبال بعض الزعماء ، بطبل وزمر وقلت لهم : اعرفوا قيمة نفوسكم ، تعرفوا انكم أكبر من هؤلاء الزعماء .

فاجعة كامل الصبّاح

عندما فجع لبنان والعلم والعالم كله بمصرع كامل الصباح بأول نيسان عام ١٩٣٥ تألمت جداً ورثيته بالقصيدة التالية :

كنز العلوم وحامل المفتـاح أعرفتَ وصفَ «الكامل الصبّاح»؟
اعجوبة الزمن الضنين بسـره إلاّ على العقل الكبير الصاحي
شمس المعارف والنباهة والحجى في ذهنه الابداعُ ، عصفُ رياحِ
ذاكَ الدمـاغ المستنير كأنـه عينٌ ترفُّ على ضفافِ صباحِ

«موخوس» يهتف من عميق ترابه ويقول : إبني صائلٌ بسلاحي
ويعلّم الدنيا ، ويسكن فكرها اترى يصحُّ تقمصُ الارواح ؟

يا ويحهم حرموا البرية نعمةً لم تكتمل فيها منى الافراحِ
لو أمهلوك لرحت تمنح أرضنا نِعَمَ السما وعجائب المتاحِ
عرفوك جبار المواهب كاشفاً غيب الرؤى بتطلع الطمّاحِ
فترصدوك وغيبوك ليسرحوا في حلبة «التقليد» ايَّ سراحِ
حاشا البقا – نرثي غيابك بالبكا الخلد يرفض مدمع النوّاحِ
والمجد لاسمك حاضراً أو غائباً في مسمع الدنيا ، هدير صداحِ

سفينة الفضاء

عام ١٩٣٥ مر الطيار الفرنسي «بيكر» بطائرته في سماء لبنان ، فخاطبته بالابيات التالية التي حملت نبوءة بنزول الانسان على القمر والكواكب الاخرى اذ قلت :

وسابحةٍ فوق السحاب تخالها شهاباً تهادى في الفضاء وما ارتمى
وان شمتها في الليل قلت مذنبٌ يجرُّ على الدنيا خراباً محتما
تبين وتخفى في الغيوم سريعةً كإبرة نجاد بخيط مخرّما
يطرّز سربال الرقيع مسارها فيمسي فراشاً رائع الوشي مُعْلَما
تُسفُّ – فتبدو شبه بيتٍ معلقٍ وتعلو فتغدو ، نجمةً تطأ السما
فطيرٌ بلا ريشٍ وجسم بلا ضنىً ورعد بلا برقٍ يدوّي مزمزما
وما زالت العنقاء رمز توهمٍ إلى ان جلاها العلم شخصاً مجسما

يقولون «ايليا» ارتقى قبل موته بمركبةٍ من خيل نارٍ ، لِيُكرَما
فقل لي –فداك اليوم أمي مع أبي– اكانت مطاياه اعزُّ وافخما ؟

وهل كان ايليّا سوى «بيكرٍ»وقد تحدى المنايا وامتطى الجو ملجما ؟
وما يمنع الطيار في الغد وقفــةً على صهوةِ «المرّيخ» ضيفاً منعمّا؟
كذا يملك الاكوان عقل مفكـرٌ كذا يمتطي الافلاك شخص تعلـّما

حكاية موزع البريد

للبريد حكاية ضخمة وطويلة في مسيرة حياتي النضالية ، فكرياً واجتماعياً ، وتستحق ان يفرد لها كتاب خاص . ولكنني ساوجزها لكم كما يلي :

في منتصف عام ١٩٣٩ كان الطغيان الهتلري قد اخذ يجتاح الاقطار الاوروبية ، الواحد تلو الآخر ، وينذر بنشوب حرب عالمية ثانية ، ربما كانت أشد هولاً وأكثر خطراً من الاولى . وكنت اعلّم التلاميذ في مدرسة مليخ الاهلية. ولما كنت قد جعت في حرب ١٩١٤ وحففت « جلد العجين » وأكلت خبز الباقية ودخت ، فقد خشيت ان تتعرض عائلتي – والدي ووالدتي وزوجتي وأولادي الخمسة – للمجاعة وربما للموت في الحرب المقبلة . فطلبت وظيفة في الدولة تكون ضماناً لهذه العائلة ، وأديت امتحاناً لوظيفة « كاتب » في بريد بيروت المركزي ونجحت . وبقيــت انتظر التعيين أربعة أشهر كاملة ، مع الوسائط الكبيرة : من البطريرك عريضة ، ومن وزير البريد حكمة جنبلاط ، ومن مارون كنعان نائب منطقة جزين يومذاك ، وغيرهم .

ولما علمت ان مدير البريد العام ، الدكتور نقولا فياض ، متمسك بشاب أرتوذكسي يريد تعيينه ، قصدته حاملاً اليه هذه الابيات :

يا فرحتي استعلي على البأســاءِ فالحظ بشّرني بقرب هنــاءِ
يا نخوة «الفياض» اصغي واسمعي مني حكاية نكبــة وعنــاءِ
اني اديب جارَ في تأديبــــه دهر هوايتـه شقـا الأدبـاءِ
خلفي صغار عاجزون عن الجنى تقضي حواصلهم على اهراء

لو كان غيرك في مكانك لم أَفُهْ بمرير شكوى تزدري بإبائي
لكن طمعت بحلمك المشهور فا ستسهلتُ عرض ظلامتي وشقائي
فاذا اتيتَ بنجدةٍ وحمايــــةٍ فلك امتناني مع حميم وفـائي
ماذا اقول لعيلةٍ « سهرانــــة » تبغي من الديجور صبح رجاء ؟
والقول عندك فيصلٌ بل فاصلٌ بين المنى وتعاسـة التعسـاء

فوقف ذلك الانسان الكبير ، متأثراً ، مغرورق العينين وقال لي من الوزن والقافية :

دمعت عيوني اذ سمعتك شاكياً يا مستحقاً نجدتي وثنــــائي

وفعلاً تخلى عن الشاب الارثوذكسي وطالب بتعييني أنا الماروني فوراً ، مما ادهش وزير البريد حكمة جنبلاط فقال لي :

حقاً ان نقولا فياض ، ليس شاعراً كبيراً وحسب بل انه انسان كبير ايضاً !

أما المفاجأة المؤلمة ، فكانت صدور مرسوم جمهوري بتعييني موزعاً للبريد في منطقة دير القمر ، لا كاتباً في البريد المركزي ، كما كان امتحان التعين .

وعندما عاتبت مدير الديوان — وكان يهودياً واسمه براون — على هذا العمل قال باستخفاف : الدنيا خربانه يا استاذ . وهتلر يحتل اوربا ؛ وانت تتدلل على وظيفة يتقاتل الناس من أجلها ؟ ومع ذلك ، فبامكانك ان ترفضها !

في هذه اللحظة ، تصورت الحرب تجتاح لبنان كعام ١٩١٤ ، وعائلتي الكبيرة تجوع وتتعرض للموت ، فاستلمت المرسوم دون وعي ، وانطلقت إلى دير القمر وأنا أقول في نفسي ؛ حياتي ليست اعز من حياة أولادي وأهلي !

وهناك كنت أوزع البريد على ٣٢ بلدة وقرية . واشتريت حصاناً ، ثم دابة بعد ذلك . لان علف الحصان كان يستهلك نصف معاشي الذي هو ٣٦ ليرة يومذك !

مع رشيد نخله

في أول لقاء مع المرحوم رشيد نخله ، وفي منزله بالباروك ، طلب الي اسماعه شيئاً من شعري ، فقلت : من أي نوع تريد ؟ فضحك وقال : هات غزل . غزل . لان شخصية الشاعر في غزله . وهل لديك شيء في العيون الجميلة قلت : نعم !

الله معك يا مكحّلي العينين — كحله رفيعة مسلّحة بسهمين
سهم يغرف كحل من قلبي — وسهم يحرس وردة الخدين

وطلب وصفاً « للوجه » بكامله فقلت :

لما التقينا والنظر صادم نظر — والهوا طيرّ حجابا وما انتظر
لفلفت خدّ اليمين بكمّها — خمنّت انو انشقّ شطرين القمر

فطرب جداً ، وطلب وصفاً لمنظر طبيعي ، فقلت انني وصفت الشمس عند شروقها على « الابهل » في أعلى جبل الباروك ، « والابهل » هو شجر الارز هناك :

لما الغزاله شعشعت بسماتها — مشهد مهيب ، تمثّل بغيماتها
خواريف بيضا ــ مذبّحه ومشلحقه — فوق الجبل ــ ومطرطشه بدماتها

فازداد طرباً وقال : ان كلمة « مهيب » في وصف المشهد رائعة وبارعة جداً . لانك لو قلت : جميل ، فان مشهد الذبح غير جميل ولا بديع ... لكنه مهيب حقاً يجمع الروعة والخشوع .

وأذكر ان المرحوم رشيد اعلن عن تقديمه جائزة بواسطة جريدة « مرقد العنزة» لمن يستطيع ان يبدل لفظة « مهيب » بأفضل منها .

بعد ذلك ، وفي احدى السهرات في منزل وديع البستاني ، وبحضور عدد من الادباء ، في طليعتهم نعوم افرام البستاني ، طلب مني نعوم ان اعارض قصيدة رشيد نخله التي يقول فيها :

لو بكيتِ الكون من اجلك بكي وان ضحكتِ اهتز عرش الملكي

فقلت : لن اتطاول على أمير الشعراء . فالحّ نعوم وشاركه الحاضرون في الالحاح ، فقلت انني اعارض الشطر الثاني من مطلع القصيدة فأقول :

لو بكيت الكون من اجلك بكي وطلّ الله وصاح : دخلك شو بكي

فوثب نعوم وضرب طربوشه بالأرض وقال : يخرب بيتك . هذا الشطر وحده قصيدة بل معلّقه . لان رشيد نخله جعل عرش المملكة يهتز ، أما أنت فجعلت الله بذاته يطل ويسألها عن حالها بتلهف . وهذا لم يسبقك احد إليه .

وفي جلسة ثانية مع الرشيد ، طلب مني ان اسمعه شيئاً من القصائد ذات النفس الطويل التي تظهر فيها مقدرة الشاعر ، فاسمعته قصيدة « الحبقة » التي طرب لها كثيراً ونعتها بانها « اخت الرشيديات » ولا مجال لسردها هنا وستصدر في الديوان الخاص بالشعر الشعبي قريباً ان شاء الله .

وعندما توفي رشيد نخله تأثرت عليه جداً وحضرت مأتمه وقلت فيه ندبة من النوع المألوف بهذه المناسبات ، ولاول مرة أنشد ندبه بصوتي غير الجميل وتلتف الجماهير حولي في الباروك ، مرددة ما انطق به .

وهذه بعض مقاطع من الندبه ، وصادفت الوفاة يوم ١١ ت٢ وهو عيد الهدنة في الحرب العالمية الاولى :

عيد هدنه ويوم راحا والجنود ارخت سلاحا
وعندنا اليوم القيامه قايمه بافجع مناحا

عندنا اليـــــوم القيامـــــه قايمه تبكـــــي الزعامـــه
والشهامـــــــه والكرامـــه لابســه الاســـود وشاحــا

انصاب لبنـــان برشيـــــدو الكان يحميــــــه ويشيــدو
وعالمدى خلّـي نشيــــــدو في فم العليــــا صداحــا

وأطلَ علينا نجله أمين من الشباك وهو يجهش بالبكاء فناديته :

يـا امـين بـــــك المفــدّي الموت عا بيّـــــك تعــدّى
ومصيبتـــك لبنـــان عَـــدّا مصيبتـــو وحامـــل جراحا

كون عاقـــل كـون صابـــر ما بقـــا للكسـر جابـــــر
اعتزت بضيفـــــا المقابـــر وانبدل ليـلا بصباحــــــا

الادارة والحمارة

في طريق عودتي إلى الدير ، كنت امرّ على مركز بريد بيت الـدين ، للتصديق على أوراق « الدوريـة » عنـد مدير المركز الإنسان الخلوق ، سليم المجذوب . وكان عنده ثلاثة اولاد لطفاء وحلوين ، هم : حسني ، وشقيقتاه ميمنه وميسره . فكانوا يلاقونني فرحين هاتفين :

اجا عمو سليمان . اجا عمو سليمان . وكنت انفحهم أحياناً بما يحتوي الخرج من تفاح ورمان « وعكّوب » في موسمه . فيطل والدهم بضحكته المحببة الناطقة بطيب سريرته فيقول :

الله يعطيك العافية أيها الشاعر الصابر .

وذات يوم وصلت فوبطت الحماره – وكنت قد بعت الحصان – فضحك سليم وداعبني قائلاً : شو .. مبيّن صرت عالحماره ؟ فقلت على الفور :

لو كانـــت هالحمـــاره بتتسلّــــم هـــالاداره
كان ممكــن ميـزان العـــدل ما يخـــلّ ولا اشـــاره

فقال : انك تهيننا يا رجل ! قلت : لا عليك . وإنما أنا أعني الادارة العليا ، من الرئاسة ونازل ... فقال : فعلاً انت دائماً شاعر . فقلت أيضاً :

نيالـــك شـو متهنّـــي مرتـــاح ودارك جنّـــي
لصـــوص الاداره هـــني كبارا – وأشرافا – زغـــارا

رثاء باريس

عندما سقطت باريس بين ايدي الجحافل الهتلرية الغازية ، نظمت قصيدة في رثاء باريس ، هذا مطلعها :

باريس ما لك في سوادٍ حالكِ والمجد يسأل لاهفاً ، عن حالك

وقد نشرتها جريدة « البشير » يومذاك وكانت مقروءة بكثرة في دير القمر . وقد فوجئت بأحد الشبان الأدباء الشعراء ، يقرأ القصيدة في « البشير » أمام مركز البريد في الدير ، ثم يخلع برنيطته ويطوح بها في الفضاء قائلاً بغضب :

يا ناس . يا هو . مش حرام شاعر مثل سليمان ابو زيد ، يكون موزع بريد ، والكثيرون من التنابل ، يتربعون في الكراسي الوثيرة ويقبضون المعاشات الضخمة ؟ وكبرت نفسي لدى هذه البادرة النبيلة من هذا الانسان النبيل الحساس والشاعر الرقيق ، الذي عرفت فيما بعد انه الاستاذ جورج بيطار . وما زلت احفظ له أخلص المودة والاحترام وعرفان الجميل ، أطال الله بعمره .

انا والمستشار الفرنساوي

على أثر انتشار قصيدتي في رثاء باريس ، لاقاني ذات يوم على طريق بيت الدين ، شاب وسيم يحمل بيده خيزرانه وقال : العوافي أيها الشاعر الكبير . قلت الله يعافيك . مين حضرتك وكيف تعرف انني شاعر ؟ قال : أنا سكرتير المستشار الفرنساوي وقد ترجمت له قصيدتك في رثاء باريس ، فأعجب بها ، وكلفني بمهمة فيها كل الفائدة لك . فانت تحب فرنسا طبعاً . قلت مستدركاً : أحب فرنسا الحرية والانسانية . فرنسا الرقة والجمال لا فرنسا التي تحكم لبنان حكماً استعمارياً ! فتجهم وقال : على كل حال ، المطلوب منك تقرير اسبوعي عن ميول الشعب اللبناني في هذه المنطقة وخصوصاً الزعماء المعروفين ، وموقفهم تجاه فرنسا فيشي ، وفرنسا ديغول . وتجاه المانيا أيضاً . ولك مقابل هذا العمل مبلغ ٣٠٠ ليرة كل شهر . قلت : سأحب فرنسا دائماً . لكن دون « تقرير » ولا معاش ... قال : بتندم يا رجل . انت صاحب عيلة . ونحن نعـرف ان معاشك قليل ويكاد لا يطعم زمالتك . فكـر جيداً ولا تفوّت هذه الفرصة الذهبية . وأنا سألاقيك في الاسبوع المقبل . فصلّب ايدك على وجهك واتكل على الله .

وفي الاسبوع الثاني لاقاني وبادرني : ان شالله صلّبت ايدك على وجهك ؟ فقلت : نعم صلّبت وتصلّبت أيضاً . فقال : كيف يعني ؟ قلت : ارجوك ، واعتذر عن هذه المهمة التي ستجعلني اخون الكثيرين من أصدقائي الذين أكلت من بيوتهم خبزاً وملحاً . والمطلوب مني أن اكون وفياً لهم . فهز رأسه وقال : غريب ! يا ما في ناس بيضيعوا فرصة العمر بدون تفكير . قلت : ولكنهم لا يضيعون وجدانهم الذي هو أغلى من كنوز الارض . فتركني ومضى يائساً . أما أنا فلم أندم والحمد لله ، مع انني خرجت من دير القمر إلى صور ، وأنا مديون بمئة ليرة للدكان ! ولكنني أملك الثروة الكبرى التي لا تقدر بمال الارض وهي : الشرف والضمير !

قصيدة وفلسفة

في شتاء ١٩٤١ – ١٩٤٢ ، كنت قد اصبحت في ذروة العذاب الذي لم أتعوده في حياتي . اذ كنت اسافر تحت زخات المطر الشديد ، والهواء القارس العاصف ، ويمتلىء حذائي بالماء كما تمتلىء ثيابي الخارجية والداخلية أحياناً . هذا فضلاً عن الثلوج التي كنت اغوص فيها على طريق الباروك – المعاصر – مرستي – جباع – نيحا على ارتفاع ١٩٠٠ متر في بعض المواقع . والعواصف التي تصدمني وتكاد تلقي بي في هذه الوهدة ، أو تضربني بتلك الصخرة أو الشجرة . هذا في الشتاء . أما في الصيف ، فهناك شمس النهار المحرقة التي لا ترحم راكباً ولا راجلاً ، بل تجعله كأنه جدي في سفّود .

في هذا الجو المؤلم ، نظمت القصيدة التالية ، واصفاً فيها ما اعاني من تعب وعذاب :

بعد أيامي المزهرات العِـــذابِ ... طال في توزيع البريـد عذابي
ذاهبـــاً آيبـــاً اهـيم كـــأني ... محـــور دائـــر على دولاب
مهنةٌ ، تنمو ارجل الناس فيهـا ... ويميع الدماغ ميـع السّرابِ
لا رفيق في رحلتي لا انيـــسٌ ... غير طير الفلا ووحش الغاب
غجريٌ ، مشرّد في الـــبراري ... مكتبي الخرج – والحمار كتابي
قاسمتني بهيمتي نصف عيشي ... منذ اضحى الانسان صنو الدواب
صار رطل الشعير ارفع سعـراً ... من شوال الشعور في الالباب
يا زمان الظلام والظلم مهـلاً ... سوف تهوي رأساً على اعقاب
سوف يغدو الضعيف اقوى قوي ... سيفه العدل في غلاظ الرقاب
وكفاني مكانـــةً وعــــزاءً ... انني في الذرى من الآداب

ولكنني بعد أيام ، تلقيت رسالة من قيصر الحوند ، احد تلاميذي في

صيدون – والضابط المتقاعد اليوم – تنضج بنبل مشاعره وطيب عنصره ، وفيها هذا البيت من الشعر الشعبي الرائع :

يا بريد الدير اسمع شو بريد ولو كنت عم ناجيك من مطرح بعيد
ما دام فيك «معلمي» حط الرحال تمنيت قلبي يكون مركز للبريد

فاجبته بقولي :

بعدك ضناني وضامني وقلبي حرق ونوم الهنا من جفون عينيّ سرق
ما زال قلبك صار مركز للبريد صرت وزّع عاطفة بدل الورق

وكانت الصداقات العديدة التي ربطتني بأهالي الشوف الكرام ، والتقدير الذي كنت القاه ، لدى خاصتهم وعامتهم ، قد جلبت إلى نفسي الاعتزاز والتعزية ، وجعلتني انظر نظرة جديدة ، وفلسفية إلى الحياة . فعدت ذات يوم ممطر من رحلتي إلى مركز البريد ، وأنا مبلّل حتى العظم . ومع ذلك كنت راضياً ضاحكاً . فاستغرب مني ذلك ، المدير وديع البستاني وقال :

على غير عاده ، تأتي ضاحكاً راضياً يا سليمان . خير ان شاء الله ؟ قلت :

انني راضياً ، اعتنقت فلسفة جديدة تجاه الحياة وظروفها وصروفها ومتاعبها. تجعلني راضياً لا ساخطاً كالسابق . قال . عظيم ! هات فلسفتك تانشوف !

قلت : انني أخذت أفكر كما يلي :

أنا عشت في بيت أهلي وحيداً مدللاً . ثم انتقلت من المدرسة إلى المدرسة ، تلميذاً ومعلماً . أما الآن فقد انعكست الآية ، وجاء دور المسؤولية والقهر والعذاب . ولكن بدلاً من ان اعتبر الطبيعة تنتقم مني ، وتسلّط عليّ حرّها وقرّها اللذين لم اتعودهما ، فانني أعتبر نفسي ، أنا المتسلط على الطبيعة ، من اجل ترويض وتطبيع شمس صيفها ومطر شتائها لمصلحتي وفائدتي . فانا اكتسبت صحة قوية من جراء هذه المعاناة . كما انني ارى ان هذه الارض التي

لم تطأها قدماي من قبل ، ليست هي التي تنتقم مني وتفرض عليّ تعبها وعذابها ، بل أنا الذي فرض نفسه عليها ، وأخذ يدوسها ويخضعها لقوة ارادته ومشيئته . اذن أنا قد اصبحت سيد الطبيعة بتغلّبي على عواملها المختلفة . ويجب ان افرح بهذا الانتصار ، لا أن اندب حظي وأتذمر .

فشهق وديع ، رحمه الله ، وضحك من كل قلبه وقال :

يهنيك بهذه الفلسفة العملية ، الجريئة التفسير والتحليل . وليتك منذ البداية قد استعملتها ، لكنت وفرت ، عليك وعلينا ، الكثير من التعب والنرفزة .

وكم اتمنى لو ان جميع الناس ، الغاضبين التعبانين ، يعتمدون هذه الطريقة السليمة في مواجهة متاعب الحياة .

الانتقال إلى صور

في أوائل عام ١٩٤٢ نقلت إلى صور ، ولكن كموزع في المدينة فقط . ولي في صور ذكريات مطوله وحميمة ، أذكر منها ما يلي ، أما الباقي ، فسيصدر مع كتاب الذكريات المطول الخاص :

١ ـ تأسيس « حزب التحرر العمالي » بالتعاون مع عدد من شباب صور الناهض ، أذكر منهم : سميح الصعيدي ، عقل شافي ، حسين خشن ، يوسف طناسي . وقد أولاني شباب الحزب شرف رئاسته ، وأنا الغريب عن المدينة .

٢ ـ انشاء فرع « عصبة مكافحة النازية والفاشستية » التي أسسها في بيروت المرحومان انطوان تابت وعمر فاخوري .

٣ ـ كوني أول لبناني يرفع علم الاستقلال الجديد عام ١٩٤٣ على شرفة منزله ، ويتعرض بسبب ذلك لرصاص عسكر المستشار الفرنسي ، وللقتل ، لولا تدخل الدكتور صبحي سالم طبيب المنطقة وانقاذي من ايديهم .

٤ ــ استعفائي من البريد ، ودعوتي إلى تعليم اللغة العربية للصفوف الاربعة الكبيرة في الكلية الجعفرية في صور . وأذكر باعتزاز ، ان من بين الطلاب العديدين الذين تلقوا الدروس العربية على يدي في الكلية . كثرة من الوجوه المعروفه .

ان السنوات السبع التي قضيتها في صور ، بين موظف بريد ، ومعلم في الكلية الجعفرية والمدرسة اللاتينية ، كانت من أغنى أيام حياتي بالذكريات المثيرة الجميلة ، وبالنضال الفكري والوطني التحرري . وكل هذا ، سيرد مفصلاً في مذكراتي الموسعة التي هي قيد الاعداد . وفيها ذكر لمواقف العديد من شبابنا المناضل من الرعيل الاول ، امثال علي بزي والشاعر موسى الزين شراره ، والمناضل معروف سعد . وبعض اعلامنا من رجال الفكر والشعر أمثال السادة : احمد عارف الزين ، عبد الحسين شرف الدين ، عبد الحسين صادق ، سليمان ضاهر ثم عبد الحسين عبد الله ، كامل سليمان والدكتور شكرالله حداد وعلي حجازي وغيرهم من ادبائنا الشباب الذين نعقد عليهم أطيب الآمال .

نكبة ١٩٤٨

خلال نكبة فلسطين في شهر نوار عام ١٩٤٨ كنت لا أزال في صور ، عندما تدفق عليهـــا الوف الاخوان الفلسطينين الهاربين من وحشية إسرائيل . وأذكر انني آويت منهم خمسة أشخاص في بيتي المتواضع ، وكانت لديّ أسماؤهم ـــ من أجل الذكرى ـــ وقد اتلفت في حريق بيتي بعين الرمانة عام ١٩٧٨ .

وعندما تخاذل العرب في حرب فلسطين وتفرقت صفوفهم ، واسلموها للصهاينة طوعاً او كرهاً ، تألمت جداً ، وعبرت عن نقمتي وألمي بهذا المقطع من الشعر الشعبي :

يا مصيبتنـــــا بالعربـــان شي مستزلم شي هربـــان
بلـد عيســـى ومحمـــد بْنخوتهـم صايـر خربـان

وكان الناس يتحدثون عن « الخيانة العربية » والرضوخ لارادة السياسة الانجليزية التي كانت تعمل على تنفيذ وعد « بلفور » لليهود ، بتحقيق الوطن القومي لهم على أرض فلسطين .

حادث آخر طريف حدث لي في صور . وهو كتابة مقال تحرري عن المرأة ، في مجلة « المعهد » التي كانت تصدرها الكلية الجعفرية ! وكان المقال عنيفاً في المطالبة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل حتى في حالة ارتكاب المعاصي والقصاص المتساوي ، لان الرجل هو الاقوى ، وهو الذي يغوي المرأة ويحرضها ، فكيف تعاقب هي ، ولا يؤاخذ هو ... وكيف نلت موافقة المغفور له المجتهد الاكبر السيد عبد الحسين شرف الدين على نشر المقال ، رغم قساوته . وعلى أثر نشره ، جاءتني وفود نسائية عديدة إلى البيت تشكرني باكية ، وتغمرني أنا وزوجتي بالقبلات ، لانني رفعت رأس المرأة المظلومة ودافعت عنها بشجاعة !

وفد الجلاء

ومن الاحداث المثيرة في صور ، وذكرياتها الغالية على قلبي ، ذلك اليوم الذي عاد فيه « وفد الجلاء » عام ١٩٤٦ برئاسة الاستاذ حميد فرنجيه وعضوية المغفور لهما رياض الصلح ويوسف سالم ومعهم الاستاذ نقولا الشاوي . حل الوفد في منزل الوزير سالم ، والقيت أمامه القصائد والخطب . وقد القيت أنا قصيدة طويلة اذاعت أكثرها اذاعة لبنان ، ونشرت عدداً من أبياتها جريدة « صوت الشعب » يومذاك ومنها :

يا عائـداً من لنـــدن عود الضيـــا للاعين
مثلتَ شعبـك مخلصـاً تمثيـل دور متقـن

ودفعــت بالحجـــج الاذى عن ارض هـــذا الموطـــن

وفـــد عـــديم الحـول إلا من يقـــــين المؤمــــن
لا « مدفـــع » في كفـــه يرغي بوجـــــه المفتـــن
لكن لديـــه الحـــق امضي من ســــــلاح المعـــدن
والحق جبـــــار لـــــه كل الجبابـــــر تنحـــني
فليحـــي لبنـــــان لنـــا وليحظ بالعيـــــش الهـــني

وقد اعجب المرحوم رياض بالقصيدة ، فقام وقبلّني وهنأني بهذا « النفس الوطني » في شعري . .

العودة إلى بيروت

في أواخر عام ١٩٤٨ تركت صور إلى بيروت ، حيث عملت كمخبر ومحرر في جريدة « الهدف » للاستاذ زهير عسيران ، ثم في جريدتي « التلغراف » « ونداء الوطن » ثم عينت عام ١٩٥٠ عضواً في لجنة « الاشراف على الاغاني » في الاذاعة اللبنانية وكانت مؤلفة من : عمر الزعني ، اسعد سابا ، عبد الجليل وهبي ،أسعد السبعلي . ولي عدة أغانٍ مذاعة ومسجلة بأصوات : صابر الصفح ، خليل عيتاني ، حنان ، يوسف شلهوب ، جميل ديا ، مصطفى كريديه وغيرهم

تلك السنة انضممت إلى نقابة محرري الصحف اللبنانية .

وعام ١٩٥٤ كنت رئيس تحرير «وكالة الانباء اللبنانية» وحدثت مجزرة الجامعة الاميركية التي قتل فيهـا الطالب حسان أبو إسماعيل وعطل الطالـب مصطفى نصر الله واصيب ثلاثون طالبـاً بجراح . فكتبت مقالاً في الوكالـة هاجمت فيه حكومة عبدالله اليافي التي حدثت المجزرة على يدها . فساقوني إلى سجن الرمل أنا وابني لويس الذي كـان رئيساً لمجلس الطلبة يومذاك وساقوا

معنا عشرين طالباً آخرين . وبقينا في السجن اسبوعاً اضربنا خلاله عن الطعام . وبعدما خرجنا قدنا مظاهرة جديدة ضد حلف بغداد الذي كان في حال ضم لبنان اليه ، سيعيدنا إلى حكم « الجزمة التركية » لان القيادة العسكرية للحلف نيطت بتركية في منطقة الشرق الاوسط في ذلك الوقت .

كذلك اشتركت في « حملة الشتاء » لاسعاف اللاجئين الفلسطينيين » التي قامت برعاية الرئيس رياض الصلح ومشاركة كريماته والسادة : عماد الصلح . محمد شقير ، زهير عسيران وغيرهم . وقد رافقت وفد التوزيع إلى ثكنة «ويفل» في البقاع ، حيث كان يقيم اللاجئون .

عام ١٩٥٨ اشتريت جريدة « الدنيا » من الزميل توفيق وهبه ، وحققت بذلك حلمي المزمن . وكانت « الدنيا » أول صحيفة عربية تنشر خبر ثورة العراق فجر ١٤ تموز من تلك السنة ، لانها كانت تصدر ظهراً ، وقد غطت أخبار الثورة التي اذيعت من راديو بغداد في الساعة الخامسة صباحاً . وهذا الخبر فات صحف الصباح .

وفي الستينات الفت ثلاثة كتب نضالية هي :

وشنطن في تل ابيب . افريقيا بين مخالب إسرائيل . الاستعمار عدو العرب.

وكان « للدنيا » دور وطني بارز وبناء ، خلال حرب ١٩٥٨ التي دامت خمسة أشهر .

وكان لي شرف المساهمة في قيـــام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ، وقد بقيت اربع دورات متتابعة عضواً في هيئة المجلس الادارية كما كنت رئيساً للجنته الاعلامية . وقد ادرت احدى ندواته الناجحة في جزين ، واشترك فيها النائبان جان عزيز وادمون رزق وعدد كبير من المثقفين . بعد ذلك نلت عضوية «اتحاد الكتّاب العرب » الذي مركزه دمشق .

م ١١

ومن الطرائف الصحفية النادرة بالنسبة إلى جريدة « الدنيا » ان أولادي الخمسة قد اشتركوا معي في إصدار الجريدة وهم : جوزف الذي يعمل الآن في جريدة « الانوار » . حكمة : الذي يعمل في «الاسبوع العربي» «والماغازين» إلى جانب كونه المستشار الصحافي في رئاسة الوزراء فضلاً عن كونه رئيس تحرير جريدة « الدنيا » . لويس : المدير المسؤول « للدنيا » وأحد مستشاري وزارة الاعلام . فؤاد : رئيس دائرة في وزارة الاسكان . جـان دارك ، المذيعـة التلفزيونيـة وصاحبة البرامج الثقافية المعروفة . والجدير بالذكر ان حفيدي امل ، ابن حكمة ، كان يساعدنا أيضاً في ترجمة المقالات والتحقيقات عن الانجليزية للدنيا .

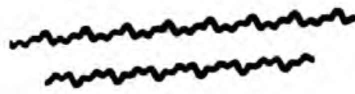
وقد نشرت الزميلة العزيزة « الجمهور » تحقيقاً عن هذه الظاهرة الصحفية الفريدة في لبنان وربما في العالم كله ، وهي ان يشترك الابن وخمسة من ابنائه في تحرير جريدة خاصة بهم .

احداث لبنان المؤلمة

وخلال أحداث لبنان المؤلمة المخجلة ، التي ما زالت مستمرة منذ ست سنوات ، كان لي مواقف وطنية عديدة ، تم التعبير عنها ، بما كتبته في جريدتي « الدنيا » وفي الصحف والمجلات الاخرى ، من مقالات وقصائد نشرت في : الجمهور ، الانوار ، الاحرار ، اللواء ، العمل ، الشبكة ، البيرق ، الاديب ، الحوادث الماروني الخ . كما ان لي قصيدة مطولة عن لبنان بعنوان (قتلوه) لم تنشر حتى الآن .

وأخيراً ، فقد شرفتموني بتتويج نشاطاتي الادبية والثقافية ، بحضوركم الليلة هذه الندوة المختصرة عن ذكرياتي التي لم استطع سردها كلها ، خصوصاً وانها تحتوي اموراً هامة جداً عن « اسرار وأخبار » عهود الجمهورية اللبنانية من عهد الرئيس شارل دباس حتى هذه الساعة .

هذا هو سليمان ابو زيد ابن العصامية الجنوبية التي تتمرد على كل المصائب والمصاعب ، وتحقق انتصاراتها حتى في أحرج أوقات الشدة والضيق . وهذا يمكن أن يرمز ، إلى انتصار وطننا العزيز لبنان على كل المصاعب والمحن ، وخصوصاً انتصار جنوبه المنكوب الذي نرتقب جميعاً بزوغ فجره المشرق بالهناء والسعادة ، والتغلب على مؤامرات جميع اعدائه .



الفهـــرس

صـــدر عـــن

المجلس الثقـــافي للبنان الجنـــوبي

---

١ – خطر اسرائيل على لبنان الجنوبي للمهندس عبد الله عاصي

٢ – في نتائج العدوان على جنوب لبنان فريق من الباحثين

٣ – وكل الجهات الجنوب مجموعة من الشعراء

٤ – صفحات من تاريخ جبل عامل فريق من المؤرخين

٥ – معا من أجل الجنوب

٦ – جنوب لبنان : خط المواجهة الاول فريق من الباحثين

٧ – وجوه ثقافية من الجنوب مجموعة من الادباء .